أرشيفو

ARCHIVO

نشرة فصلية مختصة بموضوعات الأرشيف تصدر عن

مـركـــز أوال للـــدراســـــات والتوثيـــق

أرشيفو

ARCHIVO

نشرة فصلية مختصة بموضوعات الأرشيف تصدر عن

مـركـــز أوال للـــدراســـــات والتوثيـــق

العدد 7 - أيلول/ سبتمبر 2017

نشرة فصلية تصدر عن مركز أوال للدراسات والتوثيق، تحت عنوان (أرشيفو) تعنى بقضايا الأرشيف، تنطلق من البحرين إلى الخليج إلى العالم العربي وخارجه.

تغطي النشرة المجالات التالية: المشكلات التي تواجه الأرشيف، طرق حفظ الأرشيف، التعريف بأصحاب الأرشيف الأهلي ومراكز الأرشيف الرسمي، التعريف بالمدونات والمواقع الإلكترونية المهتمة بالوثائق والأرشيف، ترجمة المقالات المنشورة بلغات أجنبية، مراجعة الكتب المتعلقة بالأرشيف ومتابعة الأنشطة والفعاليات ذات العلاقة بالذاكرة والأرشيف.

عنوان النشرة يشير إلى أن كلمة (أرشيف Archives) متقاربة النطق والكتابة والجذر في أغلب لغات العالم، وفي اللغة البرتغالية تنطق هكذا (أرشيفو Arguiv).

رئيس التحرير : د. علي الديري
هيئة التحرير : آلاء هاشم
سكرتيرة التحرير : نور بكري

مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION

info@awalcentre.com | www.awalcentre.com

awalcentre

الفهرس

1 الافتتاحية 5
«أميستاد» الأرشيف 5

2 أمناء الذاكرة 9
العقيد المؤرخ وليد زيتوني
ابن الحكاية الدرزية المتأصّلة 9

3 ديوان الذاكرة 17
دار النمر للفن والثقافة
مشروع لحفظ الذاكرة 17

4 ثقافة أرشيفية 23
حوار مع الشيخ بشار العالي
الساجات تكشف ألغازًا من التراث 23
أرشيف مركز الإسكندرية
حلم يبحث عن الاكتمال 32

5 وثيقة وحكاية 37
جدّة.. قطب الرّحى 37

6 ذاكرة صورة 45
نهايات النّبع الكبير 45
حي الأميركان.. ذاكرة حيّة 50
من الذاكرة.. معتقل «أنصار» 54

7 كشكول 61
أديم الأرض.. الشيخ ابن سعادة 61
مخطوطات في المآتم النسائية 66

8 متابعات 71

الافتتاحية

«أميستاد» الأرشيف

رئيس التحرير

يقول المفكّر الألماني فالتر بنيامين: «لا توجد وثيقة للحضارة إلا وبجانبها وثيقة للبربرية». هكذا يعمل الأرشيف، يستحضر جيرة الأضداد، يضعها وجهًا لوجه، لتتمحّض الحقيقة من هذا التقابل. من يعمل على جانب واحد في التاريخ، يكون قد أحرق ببربرية الحقيقة، وهنا يتبدّى صراع الأرشيف مع السّلطة، هي تريد أن تسيطر عليه وهو يريد أن يكشف جنباتها التي تَسْتَعِر منها.

يعمل الأرشيف في فيلم «أميستاد Amistad» على إظهار بربرية الإنسان الغربي المتحضّر ضد بني جنسه من الأفارقة الذين اتخذهم عبيدًا يتاجر بهم. يحكي الفيلم قصّة سفينة إسبانية كانت تُستخدم لنقل العبيد من كوبا إلى أمريكا. في العام 1839، تمكّن المُختطفون من تحرير أنفسهم والسيطرة على السفينة، لكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يقودونها لتعود بهم إلى أفريقيا، فقرّروا أن يُبقوا على حياة اثنين من البحارة، فمارسا الخداع وأوصلاها إلى أمريكا. وهناك، تمّ اعتقالهم، وجرت محاكمة مثيرة لهم وسط صراع بين المنادين بإلغاء العبودية، استنادًا إلى ما جاء صراحةً في إعلان الاستقلال الأمريكي، والآخرين من المنادين بالإبقاء على العبودية لضرورات اقتصاديّة، وتتداخل مع هذا الصراع تضارب مصالح دول، كإسبانيا، التي تستفيد من تجارة الرقيق، وينتهي الصراع بانتصار العبيد وتحريرهم.

لقد دخلت سفينة «أميستاد» التاريخ العالميّ كوثيقة تستحضر الصراع بين جنبتي الإنسان، تَحضّره من جانب وبربريته من جانب آخر.

«أميستاد» كلمة إسبانية تعني الصداقة، لكنها صارت وثيقة أرشيفية تعني صداقة الحضارة والبربرية معًا. ذلك هو تاريخ الإنسان.

مشهد من فيلم «أميستاد»

مشهد من فيلم «أميستاد»

العقيد المتقاعد المؤرخ وليد زيتوني

أمناء الذاكرة

العقيد المتقاعد والمؤرخ القومي وليد زيتوني: ابن الحكاية الدرزية المتأصّلة منذ أيام الفاطميين

زينب الطحان

كان «هنيبعل» للكاتب جورج مصروعة، الكتاب الأوّل الذي قرأه العميد المتقاعد والمؤرخ وليد زيتوني. كان كتابًا كبيرًا، يتألف من جزأين. ألزمه يومها والده بالاطلاع عليه، وطلب منه أن يلخّصه ويناقشه فيه. يروي العميد زيتوني بشغف تلك المرحلة الغضّة من حياته. عندها، ذُهل والده من قدرته على الإحاطة بمحتوى الكتاب وحفظ تفاصيله. كان له من العمر آنذاك أحد عشر عامًا. ومنذ ذلك اليوم، أصبح مولعًا بالقراءة والمطالعة، وبدأ يقتني الكتب تباعًا، حتّى صار لديه اليوم ما يقارب أحد عشر ألف كتاب من مختلف الاختصاصات والاهتمامات.

نشأ العقيد زيتوني في بيت قومي ينتمي إلى عقيدة المفكّر الراحل أنطوان سعادة. في بلدة مريجات البقاعيّة في لبنان، قضاء زحلة، وُلد وترعرع. يتحدّث عن تاريخ هذه البلدة، ويروي كيف كان القوميون عرضةً للاعتقال من النظام اللبناني في تلك الحقبة التاريخيّة، ولا يزال يذكر كيف جرى اعتقاله في التاسعة من عمره مع والديه وأخيه، وكان حينها قد بدأ يتعرّف إلى الحياة من حوله.

يبتسم عند استعادة هذه الذكرى، وهو ينفخ دخان سيجاره بعيدًا من عينيه في مكتبه المطلّ على الروشة، لعلّه ينفض غبار السنين، فيعود ألق الإحساس بتلك الثورة الفكريّة النهضويّة التي لطالما شعر بالحنين إليها.

زيتوني الذي يرأس حاليًا الحزب القومي السوري الاجتماعي في محافظة بيروت، نشأ والتأريخ صنوٌ لمفردات حياته يومياته. عندما بدأ وعيه الثقافي يتشكّل، اهتمَّ بالجيوبوليتيك أو الجيوسياسة، ودرسها في الجامعة، وكتب معظم مؤلفاته في هذا الميدان، من بينها «الثابت والمتغيّر في الحزب القومي السوري الاجتماعي»، في العام 1988. ومن

ثمّ صدر له في العام 2012 «مقاربات جيوبوليتيكية» في قراءة الأزمة السوريّة من منظور الفكر القومي الاجتماعي. وحاليًا، يكاد ينهي كتابه «ضياع الهويّة القوميّة والمشروع النهضوي البديل».

اهتمامات جيوبوليتيكية

لطالما كانت هذه الاهتمامات تشغله، وخصوصًا عندما انتسب إلى الجيش وأصبح عميدًا. ولا يزال اهتمامه يصبّ على الجيوبوليتيك، ولا سيما في هذه المرحلة، في ظلّ الأزمة القائمة في سوريا وفي المنطقة بشكل عام، فهو يقرأها من زاوية مختلفة، وفي ذهنه الكثير من التساؤلات: «ما الذي جلب على أمتي هذا الويل؟ وما هو المشروع النهضوي البديل الذي يستطيع التصدي للوضع القائم حاليًا؟».

ويضيف: «في التاريخ الحديث، يوجد مفصل متمثل بالمرحلة العثمانية التي امتدت لأربعمئة سنة، ويمكن أن نطلق عليها «المرحلة الساكنة». إثر ضعفها، استطاع الاستعمار الغربي التغلغل في داخل المجتمع وتفكيكه، وتقسيمه إلى تيارات إثنية وطائفية ومذهبية، وركّز عمله على الأقليات الموجودة في هذه المنطقة، وسعى إلى ربطها بمشاريعه، فانقسمت بين إيطاليا وألمانيا وإنكلترا. وقد حافظ على هذه العلاقة حتى العام 1956، حين جرى الانتقال من الاستعمار القديم إلى الاستعمار الحديث، فتدخلت الولايات المتحدة الأميركيّة في مرحلة ما يسمّى بالحرب الباردة، واستطاعت أن تحافظ على بعض المناطق هنا. ولكن بعد العام 1990، وانهيار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الفكريّة الخاصة به، استطاعت صياغة مشروعها باتجاه الصين، لأنّها كانت تعتبرها – ولا تزال - العدو الأساسيّ لها. إنّنا نتحدّث هنا عن دولة ذات نمو سكاني مرتفع (نحو 3 مليارات نسمة)، وبالتالي، فإنَّ المعادلة كبيرة جدًا قياسًا بأميركا».

يسهب العميد القومي في حديثه عن الأوضاع الجيوسياسيّة الحاليّة التي تناولها في كتابه الأخير، فيشير إلى أن الولايات المتحدة الأميركية تفرّدت بعد العام 1990 بالنظام ذي القطب الواحد، ولكنّها لم تستطع المحافظة طويلًا على هذا الواقع؛ واقع السيطرة والهيمنة، فصرنا نستطيع الحديث عن «حرب عصابات» على مستوى العالم.

يلفت العقيد زيتوني إلى أن العالم اليوم يتّجه إلى نظام متعدد الأقطاب... هذه الرؤية تسحب ضيفنا بطبيعة الحال إلى الاهتمام بكتب التأريخ الإنساني عمومًا، وخصوصًا ما يتعلّق بمجتمعه اللبناني، وبدائرته الضيقة المتمثلة بالطائفة الدرزيّة، فهو يرى أنّ الإنسان يعجز عن قراءة مستقبله ما لم يقرأ تاريخه.

في مكتبة العقيد زيتوني مساحة مهمة لكتب التاريخ والفلسفة، ساعدته على تشكيل وعيه القومي والثقافي. وقد منحته قراءاته المختلفة لمفكرين وفلاسفة عرب وغربيين رؤية شاملة حول الدولة التاريخية. تأثر بابن خلدون وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة، وكان لجبران خليل جبران أثر خاص فيه، فقد شكل بالنسبة إليه أساسًا للثورة والتمرد، وكان «الأجنحة المتكسرة» الكتاب الثاني الذي قرأه بعد كتاب «هنيبعل».

مسيرة الثورة والتمرّد

كان لافتًا أن ابن البيت القومي تمرّد في سن صغيرة على واقعه والتقاليد المحيطة به، تأثّرًا بجبران خليل جبران، من خلال العمل على مرحلتين؛ الهدم والبناء. ثقافة عائلته القوميّة ساعدتهم على استيعابه، فوجّهه والده إلى التمرّد بنحو إيجابي. كان الأخير موظّفًا في وزارة الأشغال العامة، وقوميًا مثقفًا، «واجه القمع الشهابي (نسبةً إلى فؤاد شهاب)، الذي أسّس فيما بعد للحرب الأهليّة في لبنان (1975)، بتركيزه على المسألة الطائفيّة»، يقول زيتوني.

ما زال يذكر تمامًا كيف طوّق الجيش المدرسة يوم الانقلاب (1960): «أخذونا وأقفلوا البيت، ووصل الأمر بهم إلى أن «يعتقلوا» الدجاجات، وكانوا يأخذون ممتلكات الأسرة التي تُعتقل». وللحديث عن إطلاق

سراح والده آنذاك رواية أخرى: «كان مثقّف الضيعة. يزوره الفلاحون والناس في بيته ليقرأ لهم الجريدة اليوميّة، ويطلعهم على الأخبار. كان مؤيدًا فاعلًا للحزب القومي في القرية، لكنّه لم يكن حزبيًا بالمعنى التنظيمي وما يعنيه ذلك من حركة التسلح. ورغم ذلك، جرى اعتقاله، وأفرجوا عنه فيما بعد. يومها، لم يظلم حكم شهاب والدي فحسب، فهناك من سلبوا منه أرضه، وهناك من كانوا يريدون بيته، وغيرهم أرادوا تهجيره من الضيعة، فكلّ من كان خصمًا للنظام، سواء انتمى إلى الحزب القومي أو لم ينتمِ إليه، اقتصوا منه في ذلك الانقلاب».

منذ تلك الحادثة، أضحى وعي الابن القومي مميّزًا، وبدأت معه مسيرة احترافيّة مع الكتب والمطالعة، إذ بدأ يفكّر في كيفيّة محاربة الاستبداد، ذلك أنه تلقى صدمة كبيرة جراء ممارسات الدولة في تلك الأيام، ففكر في الأساليب التنظيميّة. كان الحزب ممنوعًا آنذاك، فأمضى 6 سنوات باحثًا في كيفية العودة إليه وإحياء جزء منه، إلى أن اكتشف في مرحلة لاحقة (بعد 6 أو 7 سنوات)، أن هناك تنظيمًا سريًا، فاخترقه وانتسب إليه، وبدأ مسيرة النضال منذ ذلك الوقت، من المرحلة السريّة إلى المرحلة العلنيّة، بما فيها الفترة التي أمضاها في الجيش.

في المرحلة الأولى، نشبت الحرب الأهليّة: «شاركنا فيها بما تفرضه عليه عقيدتنا. والمرحلة الثانية هي الاجتياح الإسرائيلي. كنّا جزءًا من المقاومة الوطنية، وكنت مسؤولًا عن منطقة كبيرة جدًا؛ منطقة شمال شرقي البقاع الغربي وراشيا، وصولًا إلى منطقة حاصبيا

للتأريخ شجون خاصة لدى العقيد زيتوني. وفي مكتبته، مساحة مهمة لكتب التاريخ والفلسفة، ساعدته على تشكيل وعيه القومي والثقافي.

من مؤلفات العقيد زيتوني

ومرجعيون، إضافة إلى مناطق أخرى، تسلّمت خلالها عدة مهمات. هذه المسألة دفعتني إلى العمل بشكل أكبر».

في هذه المرحلة، كان العقيد القومي يهتمّ بكتب من نوع مختلف، فقد قرأ «المحاضرات العشر»، و«جزر الخلود»، و«رسالة الإسلام: المسيحية والمحمدية». يعترف بأنّه لم يدرك فلسفة أنطون سعادة في المرحلة الأولى بشكل كامل، ولكنّه في مرحلة لاحقة، عندما بدأ يفهم الفلسفة فعليًا، استوعب كلّ ما تحدث عنه سعادة. وفي تلك المرحلة، كانت قراءاته متوازنة، فكان يقرأ الكتب المتعلّقة بالحزب القومي، وتلك التي تتطرق إلى تاريخ المنطقة بشكل عام. وكان يركّز كثيرًا على مذكرات كبار الشخصيات العالميّة، السياسية والعسكرية والمخابراتية، وحتّى الأدبيّة.

يذكر في تلك الأيام أنه اشترى مجموعة شكسبير وقرأها كلّها. وبذلك، كانت المرحلة الأولى ذات طابع أدبيّ، فيما كانت المرحلة الثانية فلسفيّة، تنقسم بين شكسبير وإليوت، الذي قرأه باللغتين العربية والإنكليزية بالتوازي، إذ كانت ميوله إلى الرومانسية في أوروبا غالبة على غيرها. وفي رأيه، لا يوجد ثورة من دون رومانسيّة، ولا توجد ثورة من دون حبّ. تواءمت هذه الحقيقة مع نفسه، وحاول في تلك الفترة أن يحرك كتاباته ضمن هذا الإطار، فبرزت لديه كتابات بسيطة، لأنّ المسألة العمليّة كانت طاغية على حركته اليومية آنذاك.

شجون تاريخية

للتأريخ شجون خاصة لدى العقيد زيتوني. في البداية، يقرّ بأن التأريخ الدرزي وصل إليه شفهيًا، ولكن في المرحلة الثانية، اتخذ قرار القراءة عن تاريخ الدروز أو الموحّدين. يعترض على تسمية «دروز»، فيرى أنها «تسمية طارئة على مذهب الموحّدين». ويوضح وجهة نظره قائلًا: «إنه مذهب عقلاني، وليس له علاقة بالمذاهب المتعارفة، وهو يعتمد على نقطتين؛ قراءة القرآن الكريم، والمفهوم الفلسفي لعلم الكلام. يعتقد البعض أنّ هناك مبالغة، ولكن هذه هي الحقيقة، فالدروز يعدّون الفارابي أحد الأئمة الفكريين للمذهب، ولكن ليس بمعنى الأئمة العقائديين، ويعدّون أبا علاء المعرّي أحد أئمة المذهب. وأعتقد أنّ المعرّي من المتقدّمين في هذا الموضوع شعرًا وفلسفةً».

ماذا عن تاريخ الدروز في لبنان؟ هل هم متأصّلون فيه أم نازحون إليه؟! يرى المؤرخ زيتوني «أنّ الدعوة الدرزية متأصلة منذ أيام الفاطميين في عهد «الحاكم بأمر الله»، حين كان يرسل الدعاة إلى المناطق. كان الوزير الأوّل حمزة بن علي، وأصله فارسي، يبعث الدعاة إلى مختلف المناطق. أحد هؤلاء هو «اشتكين الدَرَزي» (وهو أيضًا فارسي)، شذّ عن الدعوة، وراح يدعو لصالحه بعيدًا عن الحاكم بأمر الله، فانتبه الأتباع إليه وقتلوه. ومنذ ذلك اليوم، سمّي كل من وُجد من الموحّدين بالدروز. وفي منطقة وادي التيم، ومنطقة جبل لبنان، سُمي الموحدون بالدروز تيمنًا بأشتكين الدرزي. ولكن فعليًا، هم خارج مفهوم أشنكين الدرزي، غير أنّ التسمية أطلقت عليهم، وجرى تعميمها. والآن، ليس مقبولًا لدى الناس، تسميتهم بالدروز، لأنهم يعدون أنفسهم موحدين، والتوحيد مفهوم أوسع بالنسبة إليهم، وهو موضوع يحتاج إلى بحث آخر.

قلّة من الناس اليوم يعرفون أنّ مذهب الموحّدين ينتمي إلى الشيعة؛ الطائفة الأكبر، يقول العقيد المؤرخ. ويضيف: «بما أنّ هذا المذهب ظهر منذ أيام الفاطميين، فهو أقرب إلى الشيعة الذين فتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه، فأوجد هذا الاتجاه، شأنه شأن العديد من المذاهب، كالإخوان الصفا، والقرامطة، والعلويين، والإسماعيليين وغيرهم؛ كلّ هذه المذاهب تفرعت عن الشّيعة. والأهمّ هنا - كما يقول العلم - أنّ أوّل علم يتكوّن جنينيًا بالفلسفة، ثمّ يتفرع عنها، ويصبح علمًا مستقلًا. الأمر ينطبق علينا».

كان من الطّبيعيّ أن يهتمّ العقيد زيتوني بكلّ هذا التأريخ، فمكتبته تحفل بكتب عن مذهب الموحّدين وأتباعه، ولكنه يميّز بين الكتب الدقيقة والصحيحة عن المذهب، وتلك التي تتضمَّن الخرافات والأساطير، فيشير إلى أنّ الكاتب الأردني أحمد الخطيب كتب الأساطير عن الدروز، وهناك آخرون كتبوا عن المذهب ولا علاقة لهم به، كما كتب الكثيرون عنه، من مثل سامي مكارم، وعبدالله النجار، وحليم تقي الدين. وبعض الكتّاب تطرقوا إلى أصول المذهب الدرزي.

ويلفت المؤرخ إلى عدم وجود دولة درزية في التأريخ، بل هناك ما يسمّى «هيمنة درزية» في مرحلة الأمير فخر الدين في الشوف اللبناني. لا ينكر أنّ «بعضهم لديهم أضغاث أحلام بإقامة دولة درزية»، ولكنه يرفض هذا الأمر، لافتًا إلى أنه يفتّت المجتمع، كما أنّ قسمًا كبيرًا من الدروز يرفضونه. يرى نفسه من الناس الذين يقفون في مواجهة إقامة الدولة الدرزية، لأنّ إقامة الدولة على أساس المذهب تفسخ المجتمعات، وتسمح بإقامة أكثر من دولة في مقابلها...

يتحدث العقيد بفخر عن أبناء مذهبه، فعلى «الصعيد الفردي، هناك مبدعون كثر وأشخاص متقدّمون في النواحي الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة»، ولكنه يتحفظ في بعض المواضيع المتعلقة بالإطار العام، ويرى أنّ هناك تراجعًا «على مستوى المنهج في العمل الفكري لديهم، لأنّ المسيطرين على الفكر هم مجموعة يطلقون على أنفسهم لقب «المشايخ» أو «الأجاويد»، وهؤلاء لا يقرأون المذهب من موقع علمهم، بل ينقلونه بالترداد (التكرار الشفهي)، فليس بينهم متعلّمون، كما أنهم لم يدخلوا المدارس، رغم وجود بعض المشايخ الدروز المتقدّمين».

من جهةٍ ثانية، يرى أنّ حرص الدروز في لبنان على عدم السماح للآخر بمعرفة أصول مذهبهم وطقوسه وشعائره، واقع قائم في المجتمع. يوضح زيتوني أنّ السبب في ذلك هو «الخوف الموجود لدى القيمين على هذا المذهب، فهم غير متعلّمين، ويخشون المواجهة، لكونهم لا يعرفون الأصول الدرزيّة الصحيحة، فمن يعرفها يتكلّم عنها، ويناقش الآخرين بها، ولكنهم، ومنعًا من الانزلاقات، اتخذوا قرارًا بعدم البوح بها تحت عناوين متعدّدة. من هنا، تبقى المعرفة محصورة بالأجاويد والمشايخ».

يرى العقيد زيتوني أنّ الخطورة تكمن في هذه الفكرة على وجه الخصوص، إذ إنّها «مرتبطة بسلسلة من تقاليد لم تعصرن، وصارت تعيدنا إلى الخلف، علمًا أننا إذا قلنا إنّ المذهب الدرزي مذهب عقلاني بامتياز، فالموضوع لا يخيف أحدًا، ولكن لماذا يخافون منه! لا أعرف».

ويشرح سبب منع اعتناق المذهب الدرزي، فيشير إلى أنّ «الدخول في المذهب الدرزي ممنوع منذ أيام الفاطميين، فصلاح الدين الأيوبي الذي حارب التشيّع، أوجد واقعًا سمّي «المحنة الكبرى»، إذ فرض على كلّ الناس العودة إلى مذاهب السنّة، فقتل من قتل، واعتقل من اعتقل، وأخذ عهدًا على الدروز ألّا يُدخلوا شخصًا جديدًا إلى مذهبهم. ومع موت صلاح الدين، حافظوا على هذا القرار إلى اليوم، وكأنّه سُنّة. هذه هي الحقيقة التاريخية».

كلمات هاربة وتحدٍّ صارم

العقيد المتقاعد وليد زيتوني، شاعر وأديب أيضًا. في رصيده عدة دواوين شعرية: «كلمات هاربة» (1996)، «لن أسميه شعرًا» (2010)، و«أما أنتِ» (2011). قرأ لمعظم الأدباء اللبنانيّين والعرب في سنٍّ مبكرة وتأثّر بهم. يحكي عن نجيب محفوظ وسهيل إدريس وسحر خليفة، ولا ينسى الرواية الفلسطينية، فله شجون خاصّة مع الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش، والشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين.

في الشعر، يفضّل القصيدة الحديثة، لكونها تعتمد على الصورة أكثر ممّا تعتمد على إيقاع الخيل في الصحراء، ويبقى في «شجار ثقافي حاد مع قصيدة ما بعد الحداثة التي تحاول أن تفتح لها طريقًا في العالم العربي». ويقول في هذا الصدد: «مرحلة ما بعد الحداثة حاولت، في مسألة فلسفة التاريخ لميشيل فوكو، وصراع الحضارات لهنتنغتون، أن تبدأ من موقع إيديولوجي يسوّق لمفهوم الرأسماليّة في الغرب تحت عناوين فكريّة. أثبتت الوقائع اليوم أنّ الفكر الرأسمالي الغربي سيفشل كما فشل الفكر الماركسي تمامًا، لأنه لم يستطع حتّى الآن فرض سيطرته على المستوى الفكري، واصطدم بمفهوم الحداثة، وقد جرى التسويق لموضوع العولمة التي تلغي الهوامش بين المجتمعات، وتمتلك امتدادًا في الغرب».

اليوم، يذكّره الواقع الذي نعيشه بما قرأه قديمًا في بطون الكتب التي تضمّها مكتبته الضخمة، «فقد قرأ مثلًا مدرسة فرنكفورت، ومجموعة الجيوبوليتيكيين الألمان الذي عملوا مع هتلر، وخططوا له بالمعنى الجيوستراتيجي، ودفعوه باتجاه فرنسا؛ قلب العالم في ذلك الوقت، للسيطرة على العالم، ثم اكتشف أنّ هذه المجموعة كانت مكونة من يهود يدفعونه باتجاه الشمال، وفي الوقت نفسه، يقاتلون على نهر الدامور في لبنان مع فرقة إنكليزية، ما يعني أنّهم كانوا يقومون بعملية تضليل فكري وجيوستراتيجي لهتلر في تلك الأيام، بدليل أنّ الناس الذين كانوا يدفعونه إلى تلك المنطقة، كانوا أيضًا يحاربون هنا.. وبعد كلّ هذا التأريخ، تثبت الوقائع الحاليّة أنّ قلب العالم هنا.. هو منطقة سوريا الطبيعية».

زينب الطّحان: أستاذة جامعيّة وكاتبة وصحافيّة لبنانية. تخصّصت في النّقد الأدبي والسّرد الروائيّ، وأعدّت أطروحة دكتوراه حول الهجرة والهوية في رواية «بدايات» لأمين معلوف. صدر لها كتابان عن الأدب ما بعد الكولونيالي.

للتّواصل عبر الإيميل: riza_zein@hotmail.com

مكتبة العقيد زيتوني

دار النمر في الحمرا - بيروت

ديوان الذاكرة

دار النمر ومجموعته الفنيَّة المتنوّعة: مشروع لحفظ الذاكرة الفلسطينية

حسن زراقط

منذ أربعين عامًا، بدأ جامع الأعمال الفنية، رامي النمر، اقتناء كلّ ما يتعلق بتاريخ المنطقة العربية والعثمانية، إلى جانب مقتنيات فنية مختلفة. شغفه ببلاد الشام وتراثها، دفعه إلى تأسيس مجموعة ثقافية، يسعى من خلالها إلى حفظ الهوية التي يجري العمل على تشويهها في مجالات الفن واللغة والإرث الإسلامي والعربي، كالوثائق المرتبطة بتاريخ المنطقة العربية منذ الحقبة البريطانية، ثم الفرنسية، حتى مجيء العثمانيين إليها.

يهتمّ النمر بحفظ التاريخ الفلسطيني من الضياع، وهو الذي يُباع في المزادات في لندن وأميركا، ويقوم الإسرائيليون بشرائه، والإضاءة على الإنتاج الثقافي في بلاد الشام. تقول المديرة التنفيذية في «دار النمر»، رشا صلاح، إنّ المجموعة تتضمَّن أولى المجلات التي طُبعت في فلسطين، وأرشيفًا وصورًا لأوائل حركات المقاومة الفلسطينية المعادية للصهيونية قبل إعلان دولة إسرائيل، والمراسلات بين العرب والبريطانيين والفرنسيين، التي تتحدّث عما كان يجري في المنطقة من مجازر ومعلومات مهمّة تاريخيًا.

منذ سنة ونيّف، تأسَّس «دار النمر» للفن والثقافة في بيروت في مسعى لجذب الأنظار نحو الأرشيف الفلسطينيّ من وثائق وتراث، كمؤسَّسة فنية مستقلّة غير ربحية وفضاء ثقافيّ تفاعليّ. تتميّز «مجموعة النمر الفنية»، وهي توأم «دار النمر» في بيروت، بتنوّع مضمونها من صور ووثائق ومعادن وأثريات.

مقتنيات بجوهر تاريخيّ

تبدي مسؤولة المجموعة لمى قبرصلي اهتمامًا بمسألة حفظ التراث والوثائق وأرشفتها بحسب الإمكانيات المتاحة

للدار الَّذي يستضيف المجموعة ويديرها، وينتقي ما يشتريه ليسدّ النقص فيها. تتألّف المجموعة من وسائط عديدة، تتراوح بين أعمال على الورق، زجاج، فضة، عملات معدنية، صور، رسومات، سيراميك، فضيات، ومعادن، فهي مجموعة عامَّة جدًا. وفي هذه المجموعة حوالى 3 آلاف قطعة (ما عدا الأشياء التي يجري شراؤها باستمرار). تقول قبرصلي: «إنه أرشيف كبير جدًا. بدأ رامي النمر بجمع القطع مذ كان شابًا صغيرًا، إذ كان يهتمّ بشراء العملات المعدنية والطوابع والزجاج».

ويضمّ الدار، إلى جانب المجموعة الفنية، مخطوطات، وقطعًا خزفية، وتحفًا زجاجية، وأسلحة، ودروعًا، وأقمشة، وأدوات معدنية، وتحفًا خشبية مطعّمة بالصدف، وأيقونات، وصلبانًا من القدس، وفخارًا أرمنيًا أيضًا من القدس، وأعمالًا فنية فلسطينية حديثة ومعاصرة، إضافةً إلى لوحات ورسوم لمستشرقين.

عملية شراء هذه المواد والأغراض ليست عبثية، بل تتمّ لملء الفراغات أو الثغرات في المجموعة، وليس الهدف منها هو الشراء البحت. وبحسب قبرصلي، يهدف العمل إلى تكوين مجموعة «لحفظ تاريخنا وثقافتنا وعرضها، ونشر المعرفة أكثر، وأيضًا جذب الجمهور. فللمجموعة جوهر قويّ»، ويسعى الدار إلى شراء النواقص من خلال طرق مختلفة، فيقوم مثلًا ببيع بعض المقتنيات من أجل شراء ما ينقص المجموعة.

لا يمكن أن يجد الدار كلّ ما يريده من آثار ووثائق قديمة، «لكنَّ الأمر قابل للتحقّق مع الصبر، ويحتاج إلى المزيد من الوقت»، تخبرنا قبرصلي. كما يتمّ الحصول على المقتنيات في المجموعة من خلال معارض ومبيعات خاصَّة ومزادات علنيَّة، بعضها الإسلامية، تقام مرتين في كلّ عام في لندن، وتعرض الصور والوثائق والخرائط والنصوص القديمة وغيرها، فضلًا عن المخطوطات التي يجري شراؤها بشكل مستمرّ.

يسعى الدّار إلى اقتناء الأرشيف أكثر من التراث الفلسطيني. افتُتح أول معرض للدار بالمشاركة مع «متحف فلسطين» المتنقّل، وكان يدور حول تاريخ التطريز الفلسطيني. وبحسب صلاح، يتمثَّل الهدف من هذه الشراكة في دعم متحف فلسطيني، بالرغم من كلّ محاولات الاحتلال لعرقلته، ولكن الدار، توضح صلاح، «لا يهتم بالتراث كتراث فلكلوري، بل بالتاريخ السياسي والإرث الثقافي والفني لفلسطين»، مشيرةً إلى أنّ معرض «مداد» للخط العربي، الذي نظَّمه الدار مؤخرًا، هو معرض عامٌ، لكنه يسلِّط الضوء على الإرث التاريخي في المنطقة من الخط العربي إلى الإبداع في تخطيط المصاحف والمخطوطات العربية واللوحات والإنجيل، وكلّ ما من شأنه كسر «الكليشيهات» والصور النمطية عن المنطقة، وهو ما يهمّ الدار.

ويهتمّ النمر أيضًا بالمجموعة الصوفية التي تنضوي تحت مظلّة الفن الإسلامي، وهو يتمنّى أن يعرضها الدار بعد سنتين، لأنها «جميلة جدًا»، كما تصفها قبرصلي. أما سبب انتظار هذه المدّة الطويلة، فتعلّله بأنّ «كل معرض نريد إقامته يجب أن نقوم بأبحاث حول مواده وإعداد كاتالوغ (دليل) خاصّ به».

وفيما يتعلق بأرشيف فلسطين، يوجد لدى الدار كتاب يتضمَّن وثائق مختلفة، من رسومات ونصوص، تلقي الضّوء على التطور التاريخي والسياسي لفلسطين والشرق الأدنى. وتتضمّن المجموعة مواد توثيقية من القرنين السادس عشر والعشرين.

مشروع حفظ المقتنيات

في مجال الاهتمام بالمقتنيات والوثائق وحفظها، لدى الدار أسلوب حفظ خاص، وتحديدًا بالنسبة إلى المخطوطات والأعمال الموجودة على الورق. وتقول قبرصلي: «في مرات عدة، وصلتنا كتب في حالة يرثى لها. وبما أنَّ الدار لا يمتلك مختبرات متخصّصة لترميمها، فإنه ينسّق مع مرممين في لندن أو مع الجامعة الأميركية في بيروت التي عملنا مع

كثيرًا، فهم يقومون بتنظيفها من السوس وترميمها، ويصنعون عُلبًا مضادة للحمض، وصناديقَ مخصصة لها، نظرًا إلى أنهم يمتلكون المرافق المختصّة لهذه الأعمال».

وبرغم ذلك، تنظِّف بنفسها المواد من السوس في بعض الأحيان، وهي مواد تحتاج إلى بيئة مناسبة ونسبة رطوبة محدّدة في الغرفة/ مكان الحفظ، سواء كانت من الزجاج أو كانت رسومات أو قطعًا مصنوعة من الخشب. وفي الدار كادر متخصّص في تنظيف الحديد والزجاج والصحف والصور والمصاحف...

عمليَّة الحفظ في الدار «أساسية ومهمّة»، في رأيها، «ليس فقط من أجل الحاضر، بل من أجل المستقبل أيضًا». وانطلاقًا من أهميتها، شاركت قبرصلي في العديد من ورش العمل التي تتناول كيفية الحفظ والأرشفة، كي تكون متمكّنة في مجال عملها.

العمل الأرشيفي.. واجب ومسؤولية

الأرشيف والمجموعة الفنيَّة مختلفتان عن «دار النمر»، فقد مضى على تأسيس الدار سنة وشهران، لكن رامي النمر يجمع المقتنيات منذ 40 عامًا، فما استجدّ في العمل بين المجموعة الفنية (مقتنيات رامي النمر) والدار، هو كيفيَّة إدارة هذه المجموعة وعرضها. وقد مرَّ العمل ككلّ بمراحل متعددة قبل أن يُولد، من خلال رؤية النمر ومساعيه إلى تطوير المجموعة الخاصَّة به، تقول صلاح. وتنقل عن النّمر أنَّ أكثر ما يركّز عليه هو المزادات العلنية المتعلقة بالأرشيف في منطقة الشام. «المؤكد أنه سيكون موجودًا فيها، وسيحاول شراء مقتنيات، وكأنَّ هناك حالة طارئة تتمثّل بمحاولة شراء هذا الأرشيف الذي يضيع في المزادات»، تضيف.

المحافظة على الأرشيف الفلسطينيّ «واجب»، تقول صلاح، وهو يشمل الوثائق الورقية والصور، ولا يختصّ بالتراث وحده. وفي الوقت نفسه، تؤكّد أن الترويج يتم من خلال المعارض التي يقيمها

يمتلك دار النمر وثائق مختلفة تلقي الضّوء على التطور التاريخي والسياسي لفلسطين والشرق الأدنى، ومواد توثيقية من القرنين السادس عشر والعشرين.

مؤسس دار النمر رامي النمر

الدار: «لأننا مؤسَّسة لا تبتغي الربح، فليس لدينا بيع ولا شراء. ودائمًا ما تكون الموادّ موجودة للعرض من دون أي مقابل».

وفي أواخر العام 2018، سيقام معرض آخر من «مداد»، يضمّ المجموعة الفنية للدار، وستتمحور مواضيعه حول العناوين التالية: «100 سنة على وعد بلفور»، و«70 سنة على النكبة» و«30 سنة على الانتفاضة الأولى»، وهو متعلقٌ بالأرشفة والوثائق والصور، ويحضِّر له الدار بدءًا من الآن عبر اختيار الزوايا التي سيظهر المعرض من خلالها، وكذلك اختيار ما سيُعرض من المقتنيات بعددها الهائل من وثائق وصور.

نظام «كولّكتروم» للتوثيق

يستخدم الدار نظام «كولّكتروم» للتوثيق، وليس للأرشفة، وهو يحتوي قاعدة بيانات مهمَّة. أنشأه المزاد العلني «كريستيز»؛ أحد أكبر المزادات العلنية في العالم، بحسب قبرصلي، وهم يطوِّرون هذا البرنامج للأشخاص الذين يجمعون المقتنيات والبائعين والمعارض، كي نستطيع حفظ قاعدة البيانات الخاصة عليه، وتضيف: «نحن بدورنا، نقوم بإدخال عنوان الوثيقة أو المادة الموجودة وتاريخها وخانة الفهرسة وتاريخ شرائها، وهو مناسب لمجموعة من عشرة آلاف قطعة وسهل الاستعمال».

نتطرَّق مع قبرصلي إلى آلية الأرشفة في الدار، فتشير إلى أنَّ كل شيء يتم مسحه وتوثيقه، لكن ليس رقمنته بمستوى عالي الجودة، وهذه هي الخطوة الثانية المنتظرة، من خلال بناء غرفة للرقمنة ومساحة للحفظ، ليكون كلّ شيء مؤرشفًا بدقة عالية. كذلك، لدى الدار رسومات محفوظة وموجودة على «ميكروفيلم» (فيلم مصغَّر عن كتاب)، إلا أن الرقمنة تبقى أمرًا أساسيًا جدًا.

وتوضح أنّ الصور والوثائق هي أصغر جزء في المجموعة، بينما الأجزاء الأكبر هي التي تعرض الفن الإسلامي (الزجاج والفضة والورق). وخلال الأشهر القليلة الماضية، حصل نقاش حول طرائق الأرشفة للوثائق والصور، نظرًا إلى الحاجة إلى وجود مختبر للرقمنة لهذه الغاية.

شراكة في الحفظ والعرض

بعد عام وشهرين على تأسيس الدار، تشير قبرصلي إلى أن مؤسّسات عديدة لم تعرفه بعد حتى الآن، ولكن في كلّ معرض أو نشاط تم تنظيمه، كان ثمة شريك معهم فيه، كما في المعرض الأول، الذي نُظم بالشراكة مع «متحف فلسطين»، حيث استضاف الدار معرضه. وكان المعرض الثاني بالشراكة «مؤسسة التعاون» الفلسطينية. أيضًا كان معرض قلنديا الدولي بعنوان «بحر من حكايات» (أقيم في أكتوبر/ تشرين الأول 2016 في بيروت وفلسطين في الوقت نفسه)، بالشراكة مع «دار المصوِّر». وتضيف قبرصلي: «نحن منفتحون على الشراكة ما دام ليس فيها أية شروط أو عناوين سياسية معينة».

في الوقت الحالي، يتعاون الدار مع مكتبة الأرشفة الخاصة في الجامعة الأميركية في بيروت، وهي شريكة للدار، كما تصفها قبرصلي، فقد ساعدت كثيرًا في شؤون الرقمنة والصيانة للوثائق والأشياء، وجهزت كل الصناديق لحفظ المقتنيات وتنظيفها. وفي لبنان، لا توجد مختبرات للصيانة والترميم والتدريب في هذا المجال، ولكن قبرصلي ترى أن كثيرًا من الناس أصبحوا واعين بأهمية حفظ تراثهم وصيانته، بغض النظر عن الطريقة والأسلوب.

في المحصّلة، ومع وجود الموظفين المتخصّصين، وتوافر الوقت والميزانية، لا بدّ من أن يتحقّق الطموح برقمنة كل المجموعة وإتاحتها للناس على الإنترنت، وبخاصة للباحثين والخبراء والطلبة، وهو ما تؤكّد قبرصلي الحاجة إلى الوقت لتحقيقه، وإلى الكلفة المالية المرتفعة، وإلى فريق كبير. «حاليًا، أقوم بنفسي بالعرض، لأنني أؤمن بأن هذه المجموعة لا ينبغي أن تُترك خلف أبواب مغلقة»، تختم.

حسن زراقط: صحافي لبناني، حاز إجازة في اختصاص الصّحافة، ثمّ نال منحة «إراسموس موندوس» لمتابعة الماجستير في اختصاص العلاقات العامة في بولندا. عمل في عدد من المواقع الإخباريّة.

للتواصل عبر الإيميل: hasan.zaraket@gmail.com

قلنسوة متصوف - السلطنة العثمانية - القرن التاسع عشر

جانب من معرض مداد من تنظيم دار النمر

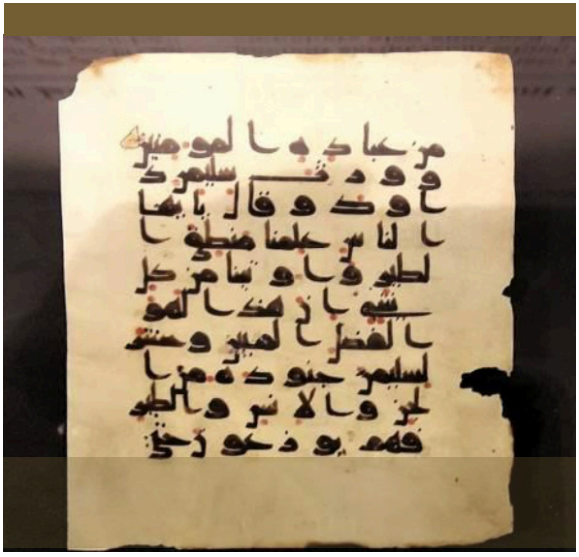

ورقة من مصحف قديم من الحقبة العباسية الأولى

كراس من مصحف مصدره مصر أو بلاد الشام أواخر القرن التاسع عشر

الشيخ بشار العالي

ثقافة أرشيفية

الشّيخ بشار العالي في حوار خاصّ حول السّاجات:
الساجات تستطيع كشف الكثير من الألغاز في التراث البحريني

عباس المرشد

بدأ الشَّيخ بشار العالي اهتمامه بالساجات بحكم اشتغاله الديني بالشعر والقصيدة الحسينية، لكن سرعان ما أخذه الشغف نحو التراث العريق لهذه الجزيرة المكتنزة، وبخاصَّة في ظلّ التحديات التي تواجه هذا التاريخ ومحاولة تغييبه واستبداله. و«الساجات» أو المخطوطات التاريخيَّة، هي كلّ ما بقي لدينا من معلومات مكتوبة ومدونة تشير إلى التاريخ المغيّب للبحرين؛ هذه الجزيرة الصغيرة بالمساحة، العريقة بالعلم والناس والأحداث السياسية والاجتماعية.

في هذا الحوار الموسّع معه، نلقي الضّوء على تاريخ المخطوطات في البحرين، وعما تكشفه من سلالات العوائل التي حكمت البحرين من أصول بحرينيَّة، والأصول التاريخيَّة لسكان أهل البحرين قبل أكثر ما لا يقل عن 800 عام. كما نتحدَّث عن مشروعه في محاولة جمع التراث البحريني المشتّت في عدة دول، ونقف أمام تجربتين «أرشيفيتين» لبعض الشعراء؛ الأولى لابن المقرب العيوني في حوالى القرن الخامس والسادس الهجري، والثانية لتراث أبي البحر جعفر الخطي، الذي عمل على أرشفة حوادث عصره من خلال الشعر والمراسلات الشعرية. ونتحدث أيضاً عن تجربة التاجر الأرشيفية في كتابه «عقد اللآل في تاريخ أوال»، وجهود السيد عدنان الموسوي في سجلّه المختصّ بوقفيات الشيعة وحصرها، بأمر من المستشار البريطاني بلجريف.

فيما يلي نص الحوار:

بدايةً، أنتم مهتمّون جدًا بجمع التّاريخ والتراث البحريني ودراسته، وبالأخصّ المخطوطات، وما يُطلق عليه اسم السّاجات، كيف ترون مسار هذه الجهود؟ وإلى أين وصلت سفينة الجمع والدّراسة؟ هل هناك اكتشافات جديدة لمخطوطات مندثرة؟ وما هي قيمة تلك المخطوطات؟

ترجع اهتماماتي بالمخطوطات إلى فترة طويلة. بدايتها، تركّز على التراث الحسيني بحكم اشتغالي بالشعر والقصيدة الحسينية، لكن بعد الدخول في غمار هذا البحر، لم تعد المسألة بالنسبة إليّ هواية، بل أصبحت مهمة كبيرة ملقاة على عاتقي، وخصوصًا أمام التّحدّيات الكبيرة الّتي يواجهها التراث البحريني من اندثار وتشتت أو من قلة الباحثين فيه. لذلك، فإن مسألة الجمع تتحوّل إلى ما هو أوسع وأهمّ، وهو النشر والتوثيق، وبالتالي تكوين إطارات دراسيّة ومفاهيم تشرح ما هو مغيَّب وغائب من حياة البحرينيين في هذه الجزيرة.

رغم ذلك، فإنَّ مجال المخطوطات لا يزال قليل الدهشة، نظرًا إلى توثيق أغلب كتب العلماء في تراجمهم وفي كشوف المخطوطات، وهذا يقلّل فرص اكتشاف الجديد فيها، من دون أن يعني عدم وجود جديد في مجال المخطوطات، حيث يمكن القول إنَّ مجالًا جديدًا بدأ في الظهور، وهو مجال النساخ والخطاطين البحرينيين، ووفرت لنا فهارس المخطوطات الواسعة، مثل فهرس دنا وفهرس فخنتا، معلومات واسعة عن كمية الكتب التي تم نسخها بواسطة بحرينيين كانوا يمتهنون مهنتي النسخ والخط، وبعض تلك الخطوط رائعة ومتقدّمة جدًا.

ومنذ حوالى عشر سنوات، وأثناء بحثي عن مشجرات الأنساب للعوائل البحرينية، تنبّهت إلى مجال أرشيفي غير مطروق ومهمل جدًا، وهو حفريات شواهد القبور أو ما يعرف بالسّاجات، فتولّدت لديَّ رغبة في اقتحام هذا المجال المغمور، لقناعتي بأنَّ هذه الساجات تحتوي معلومات ثمينة بإمكانها أن تحلّ الكثير من الألغاز والأمور الغامضة في التراث البحريني، سواء كان دينيًا أو سياسيًا. وقد قمت، بحمد الله، بمعية الأخ الباحث جاسم حسين، بحصر جميع الساجات الأثرية في جزيرة البحرين وقراءة كلّ ما دُوِّن عليها من نقوش، وجمعناه في كتاب خاص سيبصر النور قريبًا بإذنه تعالى.

المعلومات المنحوتة بفنون خطية رائعة وراقية تكشف عن معارف ومعلومات غير موجودة في الكتب، وحتى المخطوطات التي بين أيدينا حاليًا. من هنا، أستطيع أن أفهم سبب اختفاء الكثير من هذه الساجات، رغم أنها كانت شائعة ومنتشرة كحرفة وكفنٍّ خاص من فنون أهل البحرين، فالكثير منها تعرَّض للنهب أو السرقة أو الاستملاك غير الشّرعيّ، وبقي ما يربو على 100 ساجة حاليًا، تم رصدها من مختلف مناطق البحرين، وتم توثيق معلوماتها وتصويرها قبل فوات الأوان، بتلفها أو ضياعها، حيث يتعرَّض أكثرها لعوامل التعرية، لكونها موجودة في المقابر. وخرجنا، من خلال بحثنا، بقراءة متخصّصة ونصٍّ تاريخيٍّ متماسك حولها، وهذا ما وجدناه مع الباحث الأثري ثيموس انسل، الذي استفدنا من منهجيته وطريقة تحليله لكلِّ جزيئة من الجزئيات، وعبر الاستعانة بمختبرات جامعات عريقة ومختصَّة في الآثار.

في رأيك، ما هي الاكتشافات أو الإضافات الّتي وجدتها في مجال عملك حول الساجات؟

من ناحية الاكتشافات، هناك إضافات لكمٍّ هائل من المعلومات حول مجالات متعددة، فمن خلال تحليل نصوص تلك الحفريات (الساجات) وقراءتها، أمكن التعرف إلى أوقاف شرعية للعديد من المساجد التي لم نكن نعرف لها أوقافًا أو وثائق رسمية، كما في ساجة وقفية مسجد بربغي، التي تعود إلى أكثر من 400 عام، وكذلك أوقاف مسجد المنارتين (الخميس)، إذ إنَّ أوقافه منحوتة على إحدى الساجات الموجودة بين أيدينا حاليًا. كذلك، هناك تقدّم في التعرف إلى أنساب عوائل بحرينية

موجودة، والتأكّد من مشجراتها النسبيَّة. وعملية التحليل والتدقيق في محتوى تلك الساجات، من شأنه أن يصحّح الكثير من الأفكار السائدة، نظرًا إلى عدم الدقة في القراءة أو إلى عدم الوصول إليها من قبل.

ماذا عن الأرشيف السياسيّ؟ هل هناك دلالات سياسيَّة لبعض تلك الساجات؟

إنَّ اكتشاف تلك السّاجات وإعادة قراءتها، سيفيد الأرشيف السياسي بمواد ومعلومات غير موجودة أساسًا في الكتب والمخطوطات المعروفة حاليًا. وإلى جانب المحتوى الدينيّ والفنيّ لتلك الساجات، فهي ذات أهمية سياسية كبيرة، لأنها كشفت لنا عن وجود سلالات عوائل حكمت البحرين من أصول بحرينية، وهذا يجيب عن سؤال دائم الحضور عمن كان يحكم البحرين طوال الفترات التاريخية. ومن خلال بعض السّاجات، أمكن التعرف إلى أسر بحرينية كانت تحكم البحرين امتدَّت لعدة أجيال.

هل كانت تلك الأسر تحكم بشكل مستقلّ أو بالوكالة؟

بالطبع، لم يكونوا حكامًا مستقلين، ولكنهم كانوا يحكمون بالوكالة، مثل تبعيّتهم للحكم الهرمزي، من خلال الألقاب والأسماء. توجد حوالى عشر ساجات يمكن من خلالها رصد أسر حاكمة في البحرين، وعلى فترات مختلفة، على مدى سبعة قرون. هذه الأسماء المنقوشة غير موجودة في كتب أو مصادر سوى الساجات، وهي تفتح مستقبلًا للعلاقات التاريخية والسياسية التي كانت تتحكم في تدبير شؤون البحرين.

لماذا كان الاهتمام بالتاريخ السياسيّ والاجتماعيّ محصورًا في بضع صفحات أو أسطر؟ هل لغياب

إنَّ اكتشاف السّاجات وإعادة قراءتها، سيفيد الأرشيف السياسي بمواد ومعلومات غير موجودة أساسًا في الكتب والمخطوطات المعروفة حاليًا.

ساجة أثرية من قرية جدحفص في مسجد الشاري في البحرين
للشيخ علي بن لطف الله الجدحفصي

ساجة من مقبرة أبي عنبرة من قرية البلاد القديم لأحد العلماء

الاهتمام بالأرشفة أو لعدم وصول بعض التراث وعدم اكتشافه إلى الآن؟ ألا تلاحظون أنَّ هناك صعوبة ما في الحديث عن أرشيف سياسيّ مستقلّ للتاريخ السياسيّ في البحرين؟

بالفعل، هناك غياب واضح للأرشيف السياسيّ البحريني مقارنة بالدول والحضارات الأخرى. فعندما نقارن الأرشيف السياسي في بعض الحضارات، مثل الحضارة الفارسية أو البابلية أو غيرها، نجد لديهم أنظمة تدوينيَّة متكاملة وشبه منظّمة، وبخاصّة أرشفة الأدب السياسي، ولكن في ما يتعلَّق بالبحرين، هناك غياب كبير في مجال الأرشفة، لا نعرف أسبابه إلى الآن، فكلّ الاحتمالات لا تزال مفتوحة.

كانت البحرين تفتقد إلى هذا النوع من الأرشفة. لذلك، عادة ما نتعامل مع أشياء مجهولة نكتشفها من جزئيات متفرقة في نقوش حجرية أو وقفيات أو بعض الرسائل الخاصة أو ساجات لا تزال غير مكتشفة، تتضمن بعض الجزئيات القابلة للتركيب لاحقًا.

لم تكن هناك نزعة للأرشفة السياسيَّة أو حتى الكتابة السياسيَّة والتاريخيَّة، وهو أمر مؤسف فعلًا. ولهذا، فإن أغلب المخطوطات هي مخطوطات دينيَّة أو أدبيَّة، ونكاد نفتقد إلى المخطوط السياسيّ. وما دُوِّن ما هو إلا متفرقات، كالذي كتبه الشيخ يوسف الدرازي والشيخ سليمان الماحوزي، وبعض الأعلام، كالشيخ ياسين البلادي.

هل يعني ذلك غياب الأرشفة أو التدوين السياسيّ من التراث البحرينيّ؟

ليس بالمطلق، إذ إنَّ هناك العديد من التدوينات الأدبيَّة التي يمكن الاستعانة بها في تلمّس جوانب الحياة السياسيّة وتفاعلاتها عبر فترات زمنيَّة مختلفة؛ فهناك الجانب الشعريّ الَّذي حفظ في بعض قصائده ملامح الحياة السياسيَّة وحوادث مؤرّخة شعريًا.

وهنا، نقف أمام تجربتين «أرشيفيتين» مهمتين؛ التجربة الأولى لابن المقرب العيوني، الذي كان منطويًا تحت راية الدولة العيونية، واعتُبر شاعر الدولة الأوحد. هذه التجربة، رغم قدمها (حوالى القرن الخامس والسادس الهجري)، فإنها لا تزال إلى الآن تثير الكثير من الإشكاليات التأسيسيّة لتاريخ البحرين في المنطقة وتفاعلاتهم السياسية. ومع الأسف، فقد انتهت هذه التجربة مع انتهاء الدولة العيونية.

التجربة الثانية «الأرشيف الثاني»، هي تراث أبي البحر جعفر الخطي، الذي عمل على أرشفة حوادث عصره من خلال الشعر والمراسلات الشعرية. يُعتبر هذا التراث مهمًا جدًا من الناحية السياسية بحكم الموقع الاجتماعي الذي يشغله، فقد كان واسع العلاقات مع رجالات عصره، سواء كانوا رسميين أو غير رسميين. وإلى تراثه الشعري يعود الفضل في الكشف عن الكثير من المعلومات التي تحتاج بطبيعة الحال إلى الجمع والتركيب. فعلى سبيل المثال، نحن لا نعرف إلا القليل عن شخصيَّة ابن المقلد. ولولا تدوينة أبي البحر على إحدى السّاجات، وإثبات ذلك في ديوانه، لما عرفنا أنه شخصية سياسية هاجرت من القطيف إلى البحرين لقيادة تمرد وحراك سياسي. ومن خلال دراسة ديوان أبي البحر الخطي، يمكن استكشاف العلاقات الخاصَّة التي ربطت أهل البحرين مجتمعًا ودولة بالدول الأخرى، مثل الدولة الصفوية ودولة المشعشعيين، فتلك الأشعار تعتبر سجلًا لتلك المشاهدات التي يمكن الاستفادة منها بشكل كبير

جدًا. ومع الأسف، إنَّ الشعراء المتأخرين انقطعوا عن هذه الوظائف الشعرية.

وإذا ما تجاوزنا هاتين التجربتين، فإنَّ الفضاء الشعري يحمل في طياته ملامح سياسية أخرى تتمثل في النزعة المتكررة إلى حبِّ الوطن البحرين في أشعار العديد من الفقهاء والأعلام. وبحسب التتبّع الأوليّ، فإنَّ لدينا قصائد وأبيات شعر في حب الوطن تعود إلى القرن العاشر الهجري، أي قبل 500 سنة تقريبًا، وهي أبيات تعكس الانتماء الوطني لدى هؤلاء الفقهاء، مثل السيد محمد ابن أبي شبانة، والشيخ كمال الدين الرويسي، والشيخ سليمان الماحوزي. هؤلاء العلماء أرشفوا ظروفهم القاسية وكتبوا عنها. ولعلّ من بين هذه التجارب، تجربة السيد عدنان سيد شبر المشعل الذي كتب قصيدة لا تزال مخطوطة سرد فيها تجربته السياسيَّة في تلك الفترة.

وفي المحصّلة، يمكننا القول إنه ليس من عادة البحرينيين كتابة الأرشيف السياسي، وإنهم عادة ما يلجأون إلى الشعر في الأرشفة السياسية أو الاجتماعية، لأنه أكثر قبولًا. ومن خلاله، يحفظون جزءًا من ذاكرتهم السياسية.

ولكن توجد إشارات وشذرات كتبها علماء، مثل الشيخ ياسين البلادي والشيخ يوسف العصفور قديمًا، ومحاولات الشيخ محمد تقي العصفور ومحمد علي التاجر لاحقًا؟

نعم، بالفعل تُعتبر نهاية القرن السابع عشر بداية التدوين السياسي والأرشفة السياسية، ولكنها لم تكن مستقلة، فذاك الأرشيف، رغم أهميته واحتوائه معلومات نادرة ومهمة، لم يكتب بغرض الأرشفة وفقًا لمنهجية تاريخية محددة، فالشيخ ياسين البلادي كتب بعضًا من تجربته، وأدرجها كنوع أدبيّ في كتابه «حاشية على كتاب الألفية»، وعَنونها بأنها رسالة لولده، كذلك فعل الشيخ سليمان الماحوزي والشيخ يوسف العصفور، عندما أرّخوا لبعض الحوادث التي مروا بها أو مرّ بها أساتذتهم، وهذا ما يمكن ملاحظته من تحليل سجلات الإجازات العلمية التي تعتبر نوعًا من أنواع الأرشفة الدينية والسياسية. وبعد هذه الفئة التي شكّلت عصرًا فريدًا في تاريخ البحرين قبل 250 سنة، انقطعت عملية التدوين السياسي والاجتماعي، أو لعلَّها لم تصلنا بحكم عوامل الضياع والتشتت.

هذا الانقطاع في الأرشفة، استعاد نشاطه في مطلع القرن العشرين، وتحديدًا بعد كتابة الشيخ النبهاني لكتابه الخاص بتاريخ البحرين. وربما أحدث هذا الكتاب صدمة في الجيل المعاصر، لاستئناف الكتابة التاريخية، وإعادة ضبط مسارها، والحاجة إلى أن يقوم أهل البحرين بالكتابة عن وطنهم. وبالفعل، خلال هذه الفترة، كتب الشيخ محمد تقي العصفور كتابه «الذخائر»، وتبعه محمد علي التاجر في كتابه «عقد اللآل في تاريخ أوال». وبعدهما بفترة، كتب الشيخ إبراهيم المبارك كتابه «حاضر البحرين».

ربما تعدّ تجربة التاجر هي الأكثر نضجًا وأهميَّةً من بين تلك التّجارب، وخصوصًا أنّ هناك شكوكًا في صحة الكتاب المطبوع؟

في حديث خاصّ مع حسين الفردان في أبو ظبي، أخبرني أنَّ كتاب التاجر الخاصّ بالتاريخ، كان حوالى 18 دفترًا، يذكر أنّه شاهدها عند أسرة المؤلّف وأولاده، وهي غير المسودة التي نشرت، حيث إنَّ التاجر عمل على «تبييض» الكتاب بغرض طباعته، والَّذي بين أيدينا حاليًا هو كتاب «عقد اللآل في تاريخ أوال»، وكتاب «منتظم الدارين»، والمطبوع الأخير لا يزال غير مكتمل أيضًا.

وعند مقارنة كتاب «عقد اللآل في تاريخ أوال» المنشور والمطبوع بالنسخ المخطوطة، نجد أن هناك حذفًا لبعض الكلمات، وربما لعدّة صفحات، نظرًا إلى أنَّ المنشور كان مسودة ولم يكن نهائيًا.

في رحلة قمتم بها قبل عدة سنوات، بحثتم عن أصول البحرينيين المهاجرين في (بندر لنجة) وغيرها من البلدان التي هاجر إليها البحرينيون في فترات مختلفة، ما الَّذي توصلتم إليه في تلك الرحلات؟

كانت البداية عبارة عن مشروع كبير يهدف إلى جمع التراث البحريني المشتّت في عدة دول، وقد تحدثت فيه مع عدد لا بأس به من القيادات الدينية والسياسية، فهذا المشروع يتطلَّب دعمًا ماليًا ضخمًا، وليس بإمكان شخص بمفرده، وبإمكانيات متواضعة، أن ينجز فيه شيئًا معتبراً.

كانت أولى الرّحلات إلى الهند. وجدت هناك أرشيفًا كاملًا لمخطوطات بحرينيَّة كانت عائلة التاجر قد أودعتها هناك بغرض طباعتها، عندما أسّست مطبعة سلمان التاجر في بومبي، فقد كان الأخوة الثلاثة (سلمان ومحمد علي ومحسن) مهتمين جدًا بالمخطوطات والنشر، ولديهم إبداعات أدبيَّة رائعة.

أسّس سلمان التاجر مطبعة أسماها أولًا العباسية، ثم غيَّر اسمها إلى مطبعة التاجر، واستمرَّت في طباعة الكتب، واستطاع أن يطبع حوالى 15 مخطوطًا بحرينيًا، مثل كتب وفيات الأئمة وبعض كتب العلماء القدماء. وعندما أُغلقت المطبعة، بقيت الأصول المخطوطة هناك، إضافةً إلى مخطوطات أخرى معدّة للطباعة. من المؤسف أنَّ قسمًا كبيرًا من تلك الأصول وصل إلى أيدي السماسرة، وتشتّتت المخطوطات بين إيران، وبالأخصّ مكتبة المرعشي النجفي، وتركيا والهند وأبوظبي والبحرين. قسّمٌ منها تعرَّض للضياع، وقسم آخر اشتراه بعض المهتمين، من مثل الشيخ محمد صالح العريبي. وهناك قسم آخر آلَ مصيره إلى مهدي التاجر الذي جمع كلّ ما تبقّى من مكتبة عائلة التاجر، ومن بينها مكتبة صاحب أنوار البدرين الشيخ علي البلادي، ونقلها إلى دبي، وظلّت مخزّنة هناك.

في رحلات أخرى إلى مناطق مثل (بندر لنجة) والبصرة، وجدت أشياء أذهلتني كثيرًا، فبدأت أهتمّ بحياة البحرينيين وعاداتهم، ووجدت أنَّ لديهم شغفًا كبيرًا جدًا بالتواصل مع أهل الجزيرة الأم، ومحاولة البحث عن أصولهم العائليَّة، كما لمست لديهم حنينًا غريبًا إلى الرجوع إلى وطن أجدادهم، رغم استقرارهم هناك منذ عشرات السنين، وبعضهم لأكثر من 150 و200 سنة، فهم لا يزالون يحتفظون بما يؤكّد هويتهم الأصلية وارتباطهم بالبحرين، من مثل بعض الوقفيات أو الصّور والوثائق الخاصة بالأراضي التابعة لأجدادهم قبل هجرتهم.

ففي البصرة الَّتي تُعتبر صاحبة السجلّ الحافل بالظلامات التي تعرَّض لها أهل البحرين على مدى قرون، لاحظت

أنّ البحرينيين يشكّلون مجتمعًا متجانسًا ومتلاحمًا، ولديهم جامع كبير يعرف بجامع البحرينيين وحسينية. وتوجد في البصرة سلالات عوائل تصل إلى أكثر من 250 سنة، من مثل عائلة (الدوغجي)، وترجع أصولهم إلى منطقة عالي نسبة إلى (الدوغة)، وهي المكان الّذي يُحرق فيه الفخار، وأسرة آل الكامل، والسادة الغريفي والقارونية والكرزكاني والدمستاني والماحوزي، وهي أسر علميَّة، لا يزال أبناؤها يحتفظون بمشجراتهم النسبية، ولديهم علماء كبار. وكذلك، إن السادة الغريفين «أشهر من النار على العلم»، وهناك آل رحمة وآل بن عشيرة والعصافرة.

الملاحظة الثانية، أنَّ عاداتهم وتقاليدهم تختلف عن باقي مجتمعهم، من مثل ملابسهم، وخصوصًا النساء، فلا يزالون يحتفظون بالتراث نفسه الَّذي خرجوا به، وكذلك في الشعائر الحسينيَّة، كطريقة إقراض الشعر وإخراج الموكب الحسيني، فهي نفسها التي تتبع في البحرين. كما أنَّ المطبخ البحريني الذي هاجروا عنه، حملوه معهم، وظلوا منتمين إليه كمطبخ له نكهة خاصَّة وتقاليد عريقة.

هل دوَّن هؤلاء تاريخهم أو أرشفوه؟

مع الأسف، فربما حملوا معهم أيضًا عادة أجدادهم في التدوين والتوثيق. ومؤخرًا، اطّلعت على تجربة جيدة قام بها الباحث العراقي البحريني نجاح الربيعي، وحاول فيها تدوين تجربة البحرينيين في البصرة والمحمرة ودراستها، وأصدرها في كتاب يجمع أصول البحرينيين.

تُعتبر جهود السيد عدنان الموسوي واحدة من أكثر الجهود تقدمًا في حفظ التاريخ البحريني وأرشفته؟ كيف تعاملت مع هذه المجموعة؟

بالنسبة إلى سجلّ الأوقاف الذي دوّنه السيد عدنان، وعرف السّجلّ إلى يومنا باسمه، فقد كتبه كسجلٍ تخصّصيّ بالوقفيات المختصَّة بالشيعة وحصرها، وهي وقفيات مختصَّة بالمساجد والمآتم والمدارس الدينية وبعض وجوه البر، بأمر من المستشار البريطاني بلغريف، ولجنة معدّة خصيصًا للإشراف على الأوقاف الشيعيّة، وتضم تجارًا وبعض أعيان البحرين من الطائفة الشيعية، وليس كما هو مشتهر بين بعض الإخوة الباحثين، أنه مؤسس الأوقاف، بل هو مكلّف بحصر الأوقاف ليس إلا.

وتُعتبر الاستفادة من هذا السجل أو «الدفتر» هائلة جدًا، من خلال ما دوّنه من أسماء الشخصيات والمتولين وأسماء بعض العوائل وتواريخ المساجد والمآتم، فقد تم توثيقها من خلال هذا السجل. ومن يهتمّ بجغرافيا البحرين، سيجد هناك أسماءً للعيون والقرى والمزارع والمساجد والأنهار والآبار المحفورة. والمعروف من منهجيَّة السيد، أنه وثَّق ما لم يتم استملاكه، أما ما تم الاستيلاء عليه، فقد تركه ولم يدوّنه، إما لكونه قد أثبت رسميًا لغير أهله، وإما لكونه خاضعًا لسلطة بيروقراطية، وهذا ما جعله يترك فراغًا في بعض الوقفيات المستملكة، فكثير من الوقفيات، رغم إثباتها في دفتر السيد عدنان، فإنَّها الآن تختلف عما عليه حكم الوقف، رغم تشخيصها ومعرفتها.

مع الأسف أنه اكتفى ببعض الوقفيات، ولم يدوِّن الباقي منها، وبعضها حجريَّة مكتوبة على أحجار. كما أنَّ بعض تلك الوقفيات كان ينسبها إلى المتولي الشرعي، وهو الشيخ خلف العصفور. ولدينا بعض الوقفيات تحوَّلت إلى أملاك خاصَّة، بسبب الإهمال وغيره.

عباس المرشد: باحث متخصِّص في شؤون تاريخ الجماعات السياسية. أصدر عدة كتب منها «البحرين في دليل الخليج»، عن موسوعة دليل الخليج وعمان ووسط الجزيرة العربية، التي أعدَّها قوردون لوريمر وظلّت سرّية المحتوى حتى العام 1970م، حين سمحت الحكومة البريطانية بنشرها.

للتواصل عبر الإيميل: moorshd@hotmail.com

ساجة أثرية في مقبرة العاصمة المنامة المعروفة بمقبرة «الحورة»، وفيها وقفيات تعود إلى القرن الثاني عشر الهجري.

أرشيف مركز الإسكندرية: حلم يبحث عن الاكتمال

أحمد مدحت

قابلتُه للمرَّة الأولى في «معرض الإسكندرية الدولي للكتاب». أسمر البشرة، طويل القامة نسبيًا، ذو شارب خطّه الشيب، كما شعر رأسه. كلّ هذا في إطار ملامح مصريَّة أصيلة. هو الأستاذ عصام أبو الحمد، حارس الأرشيف. كان جالسًا أمام جهاز الكمبيوتر الخاصّ به. يجلس على يمينه أحد طلّاب الماجستير، في انتظار نقل الملفّ الخاصّ بأرشيف الأديب المصري طه حسين إلى «فلاش ميموري» أحضرها معه.

عرّفته بنفسي، واتَّفقنا على أن نلتقي بعد انتهاء معرض الكتاب في الإسكندريَّة. في هذه الأثناء، حضر إليه كاتبٌ عراقي، صدر له منذ شهور كتاب نقديّ عن سيرة الكاتب الكبير سلامة موسى وأعماله. صافحه بحرارة، وهو يذكّره بزيارته له منذ قرابة عامين، للحصول على أرشيف موسى، ليساعده على إصدار كتابه الَّذي بين يديه الآن. أهداه نسخةً موقّعةً من الكتاب. وفي الصَّفحة الأولى نصُّ الإهداء:

«إلى الأستاذ عصام أبو الحمد ومركز الإسكندريَّة للبحوث والدراسات.. لولا مساعدتكم لي، لما أنجزتُ هذا الكتاب».

وفي عيني المؤلّف لمحتُ امتنانًا لا يُكذَّب للأستاذ أبو الحمد ومشروعه.. فكان لا بدَّ من الزيارة.

زيارة إلى الأرشيف!

داخل حيّ «الحضرة الجديدة» ذي الطّابع الشّعبيّ في الإسكندريَّة، سيكون عليك أن تتوغَّل قليلًا في شارع «الزهور»، لتصل إلى شارع «عبد العليم». وهناك، ستصعد إلى الطابق الثالث في المبنى الذي يقع فيه «مركز الإسكندرية للبحوث والدّراسات»، وما هو في الواقع إلا شقَّة ذات أثاث بسيط، يستقبلك فيها أبو الحمد، ليدخلك إلى عالمه؛ عالم أرشيف الدوريات، عالمه الَّذي أصبح جزءًا منه، كشغف أصيل لا ينتهي!

وبينما كان يقلّب في ملفّات الأرشيف، كأنه يداعب قطعًا نادرةً من الأثريات، بدأ يروي قصّة المركز ويجيب عن أسئلتي.

يحكي أبو الحمد عن متابعته لأبيه في صباه، عندما كان يقصّ المقالات والموضوعات من المجلات والدّوريات المختلفة، ويقوم بوضعها بين صفحات الكتب التي يقرأها؛ كلّ مقالة أو بحث في الكتاب ذي الموضوع المتعلّق بمحتوى القصاصة، لتكتمل المعلومة والعرض أمام عينيه كقارئ. من هنا، تشكّل الوعي لديه بأهميَّة أرشفة الدوريات الَّتي غفل معظم الناس عنها، ولم يمنحوها الجدّية نفسها التي نالتها أرشفة الكتب والوثائق.

من هنا أيضًا، ومنذ 15 عامًا، قرَّر عصام أبو الحمد، بالتعاون مع صديقه الدكتور سيد الطنوبي؛ أستاذ التاريخ في جامعة الإسكندرية، تأسيس مشروعهما، من خلال نواة الأرشيف الَّتي كان الأخير يمتكلها، بحكم كونه قارئًا نهمًا وأستاذًا للتاريخ، وعمل أبو الحمد، بصفته تاجر كتب أساسًا، في سوق الكتب القديمة في شارع «النبي دانيال» في الإسكندريَّة، فطبيعة عمله هي التي ساعدته، ولا زالت، على تحديث الأرشيف، من خلال شراء الدوريات من كلِّ مكان داخل مصر، وخارجها أيضًا في بعض الأحيان.

أرشفة يدوية ورقمية

تقوم فكرة المشروع على أرشفة الدّوريات العربيّة والأجنبيَّة، من خلال تقسيمها إلى ثلاث فئات رئيسيَّة: «موضوعات»، «بلدان»، و«كُتّاب». يحتوي الجزء الخاصّ بالكُتّاب ما كتبه الكاتب في الدّوريات، وما كُتب عنه، أو ما جاء ردًا عليه من كاتب آخر.

يقوم صاحبا المشروع بالحصول على الدَّوريات من خلال شرائها، فذلك هو سبيلهما الوحيد للحصول على المادة التي يقومان بأرشفتها وفقًا للتقسيم السابق، الذي نتج منه تقسيم داخلي في أرشفة بعض الموضوعات التي بدأ يتوفّر لديهما فيها مادة من الدوريات تسمح بهذا التقسيم داخل الموضوعات الرئيسية للأرشيف.

يحتوي أرشيف المركز ملفّات لمواضيع من مثل التصوّف، الاستشراق، الحضارة الإسلامية، الأندلسيات، والحضارة اليونانية، وأخرى عن بلدان من مثل البحرين، السعودية، الإمارات، والأردن. وفيه أيضًا ملفات تتعلّق بشخصيات عامة وكُتّاب ومفكّرين، من مثل الأديب نجيب محفوظ، صنع الله إبراهيم، عبد الرحمن بدوي، عبد الرحمن الكواكبي، وعبد الوهاب المسيري.

كلّ هذا الأرشيف الضخم كان حصيلة مقالات تمّ جمعها من صحف ومجلات بعضها توقّف عن الصدور منذ سنوات، من مثل جريدة الوفاق، مجلة نور الإسلام، والأعداد القديمة من مجلة الهلال في إصدارها الأول. وتجري الأرشفة بشكل دوريّ متزايد، كلَّما حصلا على المزيد من الدوريات العربيَّة والأجنبيَّة، أي أنها عمليَّة مستمرّة تخضع للتحديث بشكل دائم.

يقوم صاحبا المشروع بالأرشفة الرقميَّة للموضوعات تباعًا، لإتاحتها من خلال «سي دي» أو «فلاش ميموري» لمن يحتاج إليها، وذلك في مقابل بدلٍ ماديٍّ بسيط يسدّده الباحثون المتخصّصون أو القُرّاء الراغبون في الاستزادة الثقافية، الذي يزورون المركز في مقرّه، أو من خلال معرضي القاهرة والإسكندرية للكتاب، اللذين يُنظَّمان كلّ عام في مصر، ويحرص أبو الحمد على أن يكون مشاركًا فيهما بصحبة أرشيفه.

الحصول على أرشيف الكتب الخاص بموضوع معيَّن، أو بلد، أو كاتب، أو شخصية عامّة، مهمّة سهلة نسبيًا، إذا ما قارناها بمحاولة الحصول على أرشيف الدوريات الخاصّ بالموضوع نفسه، ذلك أنَّ الدوريات العربية التي قامت بأرشفة أعدادها، اعتمدت في عملية الأرشفة على حفظ عدد معيَّن من الأعداد الصّادرة خلال مدَّة زمنيَّة محدّدة، من دون وجود أيِّ تقسيم لموضوعات هذه الأعداد، ما يجعل مهمَّة البحث صعبة للغاية على الباحث، على عكس ما قامت عليه فكرة مشروع «مركز الإسكندرية للبحوث والدراسات»، الَّذي يُسهِّل الأمور كثيرًا على الباحث، ويجعل تركيزه منصبًا على الدراسة والاستنتاج والإبداع، بدلًا من إهدار جهده ووقته في المزيد من البحث عن المواد التي تفيده في عمله.

كذلك، فإنَّ أرشفة الكتابات من خلال الدوريات المختلفة تساعد على دراسة التطوّر الفكري والفنيّ للكاتب، ولمحيطه الفكري والثقافي في ذلك الوقت، من خلال رصد المعارك الأدبية والثقافية الدائرة في كلّ فترة مثلًا، بشكل لا تسمح به الكتب ربما، فهو حفظ لتراث الكتّاب والباحثين، بشكل لا يقلّ أهميَّة في واقع الأمر عن حفظ تراثهم من الكتب.

فكرة مؤسَّسات.. على عاتق أفراد

على الرغم من النّجاح الَّذي حقّقه المركز حتى اليوم بأبسط الإمكانيات، الَّتي تكاد تكون معدومة أحيانًا، ووصول عدد المقالات التي يحويها الأرشيف إلى أكثر من نصف مليون مقالة، مُسِحَ ضوئيًا منها أكثر من 100 ألف مقالة، متاحة للباحث أو القارئ، فإنَّ أبو الحمد يؤكّد دومًا أنَّ المشروع الذي يعمل عليه برفقة شريكه الدكتور الطنوبي، ليس مشروعًا يتحمّله أفراد، نظرًا إلى التكلفة المادية الكبيرة التي يتحملانها لجلب الدوريات، وخصوصًا النادر والقديم منها، فمصدر الدخل الوحيد الحالي هو الأجر الرمزي البسيط الذي يتلقيانه من الباحثين، نظير إمدادهم بما يرغبون من أرشيف في الموضوعات المختلفة، إضافةً إلى أنَّ اعتماد المشروع على جهد مؤسِّسيْه فقط، يجعل من وتيرة العمل بطيئة نسبيًا، نظرًا إلى محدودية قدراتهما بطبيعة الحال.. هذه فكرة مؤسَّسات بالدرجة الأولى. لذا، بحث صاحبا المشروع طويلًا، ولا يزالان، عن جهة راعية لمشروعهما، وكان اختيارهما الأول هو الجامعات، لأنَّ هدف المشروع يخدم البحث العلميّ في المقام الأول، لكنَّ جهودهما لم تسفر حتى الآن عن أيّ نتيجة في سعيهما للحصول على دعم من المجلس الأعلى للجامعات المصرية، ليتبنّى المشروع، كما كانا يحلمان دومًا، ليصبح تحت إدارة الجامعة، بمنهجيتها الأكثر انضباطًا، وإمكانياتها، وقدرتها على تقديمه بالشكل الأمثل للمستفيدين.

حاول أبو الحمد أيضًا عرض المشروع على إدارة «مكتبة الإسكندريّة»، كي تتبنّاه ويندرج تحت إشرافها، إلا أنَّ سعيه قوبل بالرفض أيضًا، وكان السَّبب أنَّ صاحبي المشروع قاما بالتوثيق الداخلي لمواد الأرشيف من خلال تدوين اسم الدورية، وتاريخ صدورها، والبلد الصَّادرة فيه، أسفل الصّفحة في كلّ مقالة أو في أعلاها، وذلك لأنَّ الدوريات العربية تكتفي بالتوثيق الخارجيّ على الغلاف، ولا يوجد توثيق داخليّ سوى في أعداد مجلة «العربي» الكويتيَّة، فكان لا بدَّ من القيام بهذا التوثيق الضروري للباحث، لكنَّ إدارة المكتبة رأت في هذا الأمر سببًا كافيًا لرفض دعم المشروع.

يحكي أبو الحمد أيضًا عن كلّ الصعوبات التي يواجهها في سبيل الحصول على دعم لمشروعه، ثم يعلّق ضاحكًا بمرارة: «لو كانت عيوني زرقاء، أو لو كنت أحمل إحدى الجنسيات الأجنبية، لنظروا إلى الفكرة بشكل أفضل بكثير. زامر الحيّ لا يطرب للأسف!».

ويستمرّ الحلم!

في خضمِّ كلِّ هذا التجاهل، لا يزال أبو الحمد مستمرًا في عمله كتاجر للكتب في شارع «النبي دانيال»، إلى جانب عمله في مشروع مركز

الأرشفة. السّبب الرئيس لاستمراره، أنّ عمله الأخير هو ما يوفّر له دخلًا ينفق من خلاله على مشروع الأرشيف، كما أنَّ تجارة الكتب هي صنعة أبيه الَّتي ورثها عنه.

قبيل انتهاء حواري معه، وأثناء تصفّحي لبعض ملفّات الأرشيف، وجدتُ مقالاتٍ ومواضيعَ لم أتخيَّل أنها موجودة من الأساس، لندرتها! ففي أحد أجزاء أرشيف الكاتب الكبير عباس العقّاد، مثلًا، وجدت موضوعًا لبثينة عباس العقّاد، في مجلة «الإثنين»، ضمن عددها الصادر في العام 1950، كتبته عن أبيها في حياته، وهو الَّذي لم يُعرف عنه أنَّه تزوّج أو أنجب من الأساس! واللافت أنَّ العقّاد لم يردّ بالكتابة لنفي هذا الموضوع.

عندما سألتُ أبو الحمد مستغربًا، والدهشة تغطّي ملامحي، أجاب مبتسمًا بأنها ابنة العقاد، ولكنّه لم يعترف بها في حياته، وانتحرت في منتصف الثلاثينيات من عمرها، وتُعدّ هذه المقالة تقريبًا هي الدليل الوحيد على وجودها.

آلاف المقالات النّادرة والمهمّة في مئات المواضيع الحيويَّة، ولا يزال صاحبا المشروع مستمرين في جهدهما، لإحساسهما بأنهما يتركان شيئًا للمستقبل، كأثرٍ طيّبٍ ونواةِ فكرةٍ لا بدَّ من أن تكتمل، على الرغم من أنَّها لم تجد أيَّ دعمٍ فعليٍّ حتى الآن.

أحمد مدحت: صحافي مصريّ ومدوّن في موقع «هافنغتون بوست». حاز إجازة في التجارة من جامعة الإسكندرية. يكتب في عدة صحف لبنانيَّة ومصريَّة.

للتَّواصل عبر الإيميل: popular_reader@hotmail.com

يبلغ عدد المقالات الَّتي يحويها أرشيف المركز أكثر من نصف مليون مقالة متاحة للباحثين والطّلاب، مُسِحَ أكثر من 100 ألف منها ضوئيًا. كلّ ذلك بجهود فرديَّة بسيطة وإمكانيات ماديَّة متواضعة.

من أرشيف مركز الإسكندرية

CARTA DE MANUEL DE VASCONCELOS PARA D. JOÃ DE CASTRO. CANANOR, 12 DE MAIO DE 1548 (fls. 170-171 v.)

(170) Senhor

A outo de Mayo cheguou huma nao de Cogue Cem m que veo de Xael (1) e lhe trouxe huma carta de não que esta em Juda (2). *As* novas que lhe escreveo as.

Item que se allevamtara huum filho de Aymame ser serra comtra seu pay e que mamdara pedyr jemte ao tur a tomar as terras a seu pay e que fyquarya seu sog

(*) *Nota de leitura* — Tem uns sinais que devem ser a assina aguazil em caracteres gentílicos.

(1) Xael ou Xaer, porto e reino da costa da Arábia, entre A

رسالة بتاريخ 12 مايو 1548، تذكُر وصول خواجة شمس الدين إلى ميناء الشحر في جنوب اليمن

(2) Juda, ou Jida, porto do Mar Roxo, onde os peregrinos de cavam para Meca.

وثيقة وحكاية

جدّة.. قطب الرّحى

د. محمد السلمان

«الميناء يُسمّى جدّة، وهو قطب الرحى.
كلّ البحر الأحمر به مزدهر أكثر»
الشّاعر البرتغالي لويس كامويش

تنبع أهميَّة البحر الأحمر منذ أقدم العصور من موقعه المتوسّط بين ثلاث قارات، وهو بذلك كان شريانًا حيويًا للمواصلات والتبادل التجاريّ والحضاريّ الثقافيّ، ومعبرًا للتأثيرات الدينيَّة بينها. كما كان هذا الموقع السَّبب في ازدهار الدول والممالك الواقعة على سواحله، بسيطرتها على سُبل التجارة التي تمرّ به ذهابًا وإيابًا، وبخاصة إبّان فترة الدّول الإسلاميَّة الَّتي سيطرت على السّاحلين العربيّ والأفريقيّ.

أضف إلى ذلك، أنَّ البحر الأحمر يعدّ الذراع الأيسر للمحيط الهندي، الّذي يصل البشر والتجارة فيما بين قارتي آسيا وأفريقيا بأوروبا، ضمن شبكة التجارة الدولية البحرية بين الشرق والغرب خلال الفترة التي أطلق عليها العصور الوسطى والحديثة، أو ما قبل الكشوف الجغرافيَّة الأوروبيَّة وبعدها.

وبسبب موقع البحر الأحمر وتلك المميّزات الجغرافية – الاستراتيجية، جاء إقبال الدول الأوروبية على السَّيطرة على هذا البحر في مطلع العصور الحديثة، وخصوصًا بعد نجاح الكشوف الجغرافية البرتغالية في الوصول إلى رأس الرجاء الصالح على يد المستكشف [1](فاسكو دا جاما- Vasco Da Gama1)، وبدء تحقيق بعض الأهداف الاقتصادية من وراء هذا الكشف المهمّ بالنسبة إلى البرتغاليين تحديدًا، في محاولة السيطرة على طرق التجارة الدولية في تلك العصور واحتكارها، وما صاحبها من تنافس شديد ودموي بين القوى الإسلامية والبرتغالية، ثم بين البرتغاليين والقوى الأوروبية الأخرى فيما بعد.

وبما أنَّ من أهمّ أهداف الكشوف الجغرافية البرتغالية التي اتخذت صفة التوسّع الاستعماري الاحتكاري للتجارة الدولية والسيطرة على طرقها، هو السيطرة على طرق التجارة الدولية واحتكار تجارتها، فقد جاءت ضمن هذا السياق مشاريع البرتغاليين العديدة في السيطرة على طريق البحر الأحمر التجاري اقتصاديًا وسياسيًا، بل وحتى دينيًا، لوجود الحبشة المسيحية على سواحله الجنوبية الغربية، وضرب أيّة قوة إسلامية أو غير إسلاميّة، ومنعها من السيطرة المطلقة على هذا البحر بموقعه الإستراتيجي المهمّ بالنسبة إلى الإمبراطورية البرتغالية في المشرق.

لذا، ظلَّ ذلك يشكّل جزءًا مهمًا وهدفًا حيويًا في سياسة البرتغاليين التوسّعية في البحار الشّرقية عمومًا منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي. وهذا ما أشار إليه قطب الدين النهروالي حين حذَّر من سيطرة البرتغاليين بعسكريّتهم وسلاحهم الجديد (المدفعية البحرية) على عدن والبحر الأحمر، وأشار إلى أنّ ذلك سيمنع «سفائن الهند من الوصول إلى بنادر الحرمين الشريفين»، ويقصد بذلك ميناء جدّة بالذات.

ولهذا السَّبب، ركَّز البرتغاليون استراتيجيتهم الهجوميَّة على البحر الأحمر ضدّ مينائي عدن وجدة بالذات، لأنهما أهمّ زوايا المثلث الذهبي الاقتصادي الذي يربط شمال البحر الأحمر بجنوبه، وينتهي عند قاعدة المثلث الأخيرة، وهي السويس.

توجد ضمن ملايين الوثائق في الأرشيف البرتغالي الرئيس في العاصمة البرتغالية لشبونة، مجموعة تسمى (ساو لورينسو- São Lourenço)، وهي جزء من مجموعة (وثائق ما وراء البحار البرتغالية)، التي تصدر عن مركز الدراسات التاريخية لما وراء البحار. قام بطباعة هذه الوثائق معهد البحوث العلميَّة الاستوائيَّة، بينما تمَّ تحقيقها وتحريرها وتنسيقها للطَّبع على يد الباحثة المتخصّصة في هذا النوع من الوثائق (ماريا دي لوردس ليلاندي)، وصدرت في العام 1983 في لشبونة.

ومن هذه الوثائق التي نتناولها في هذه الحكاية، مجموعة رسائل متبادلة بين المدعو خواجة شمس الدين الغيلاني أو (الكَيلاني)، وهو تاجر مسلم معروف في غرب الهند في خلال فترة السيطرة البرتغالية في النصف الأول من القرن السادس عشر، ونائب الملك البرتغالي في الهند آنذاك، المدعو[2](جواو دي كاسترو -D. Joao de Castro).

تولّى الخواجة شمس الدين الكَيلاني منصب مدير شؤون صادق خان حاكم منطقة (Belgaum) الهندية في مملكة بيجابور الإسلامية [3]، وكان رجلًا غنيًا وذا قوة ومنعة في الهند، ولكنَّه كان على خلاف مع صاحب مملكة عادل شاه الإسلاميَّة آنذاك (إبراهيم عادل شاه)[4]، ثم أصبح شمس الدين مسؤولًا عن خزانة مملكة تطلق عليها الوثيقة البرتغالية اسم «أسيد». وبعد انهيارها، بقيت تلك الأموال في يد خواجه شمس الدين في كنانور، إلا أنَّ حاكم عام الهند البرتغالي المدعو (مارتيم أفونسو دي سوزا 1542) (Martim Afonso de Sousa-1545)[5]، حاول أكثر من مرة، بالتَّهديد، أن يجعله يتبرع ببعض ذاك المال للبرتغاليين.

كما أنَّ شمس الدين كان صديقًا حميمًا للقائد البرتغالي (روي كونزالوس كامينا -Ruy Gonçalves Caminha)، مستشار مجلس مدينة «كَوا»، عاصمة الإمبراطورية البرتغالية في الشرق [6].

تتناول الرسائل علاقة هذا التاجر المسلم بالبرتغاليين في الفترة ما بين 1546-1548 على وجه الخصوص، وهي تعقّب الفترة المضطربة في العلاقة بين العثمانيين والبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وخصوصًا بعد نجاح حملة سليمان باشا الخادم في الوصول إلى «ديو» في غرب الساحل الهندي والتصدي للبرتغاليين هناك، رغم فشلها في تحقيق إنجاز مهمّ ضد البرتغاليين [7]، وما تبع ذلك من توجّس البرتغاليين الدائم وترقّبهم لوصول حملات عثمانية أخرى، انطلاقًا من موانئ البحر الأحمر، وبالذات من جدة، باعتبارها القاعدة الحربية البحرية الثانية للعثمانيين في ذاك البحر بعد السويس.

ركَّز البرتغاليون استراتيجيتهم الهجوميَّة على البحر الأحمر ضدّ مينائي عدن وجدة بالذات، لأنهما أهمّ زوايا المثلث الذهبي الاقتصادي الذي يربط شمال البحر الأحمر بجنوبه، وينتهي عند قاعدة المثلث الأخيرة، وهي السويس.

الوثيقة الأولى:

الوثيقة الأولى هي رسالة بعث بها الخواجة شمس الدين الكَيلاني من ميناء «كنانور» غرب الهند، وكان يقيم فيه ويزاول عمله هناك كتاجر مسلم تحت سمع البرتغاليين وبصرهم، وبالتعاون معهم، وبتسهيلات منهم أيضًا. وقد أرّخت تلك الرسالة في 23 مايو 1546، وهي مرسلة إلى نائب الملك البرتغالي في «كوا» آنذاك وهو الدوم[8](جواو دي كاسترو- D. João de Castro).

تقول الرسالة في بعض أجزائها على لسان الخواجة شمس الدين: «وصلت سفينة كانت مرسلة إلى قشم[9] التي كانت فيها ثورة آنذاك، وهناك جاء رجل من طرف أخي عبد الرقيب (عبد رقيب)، وقد علمت منه أنه في تاريخ 21 مايو لم يصل أحد لتولي أمر منطقة قشم، نظرًا إلى قيام ثورة لأحد المتمردين في أراضي (شيل)[10] المضطربة. كما أرسل إليَّ أخي عبد الرقيب الذي كان في جدة رسالة عن نية القائد البحري التركي[11](سنان جودي- SenãoJude) في جدة بتجهيز عشرة سفن حربية، لإرسالها إلى الهند (لمحاربة البرتغاليين)، إلا أنَّ الموت عاجله بسبب انتشار الأمراض في المنطقة بعد مكوثه في البحر الأحمر لمدة ثلاثة أشهر، فتفرَّق عنه جنوده، وبقي عدد قليل منهم في السويس. وهذه الأخبار مؤكّدة، ولا يوجد شيء آخر يقال. أما بالنسبة إلى الأتراك، فليس لدينا أخبار عنهم حاليًا، سوى تلك التي جاءت بها قافلة الحج من مصر في هذا الموسم. وهذه هي أخبار المضيق - باب المندب - ولا يوجد على الأرض شيء جديد، وأنا تحت أمر سعادتكم فيما لو تودّون مني فعل أيّ شيء آخر، فأنا مستعدّ له تمامًا»[12].

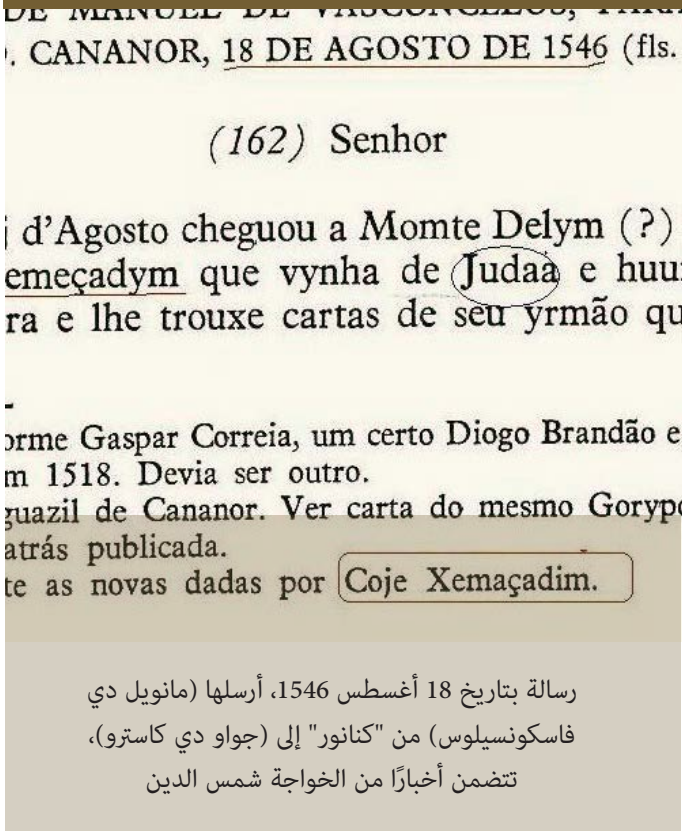

. CANANOR, 18 DE AGOSTO DE 1546 (fls.

(162) Senhor

j d'Agosto cheguou a Momte Delym (?)
emeçadym que vynha de Judaa e huu
ra e lhe trouxe cartas de seu yrmão qu

orme Gaspar Correia, um certo Diogo Brandão e
m 1518. Devia ser outro.
guazil de Cananor. Ver carta do mesmo Gorypo
atrás publicada.
te as novas dadas por Coje Xemaçadim.

رسالة بتاريخ 18 أغسطس 1546، أرسلها (مانويل دي فاسكونسيلوس) من "كنانور" إلى (جواو دي كاسترو)، تتضمن أخبارًا من الخواجة شمس الدين

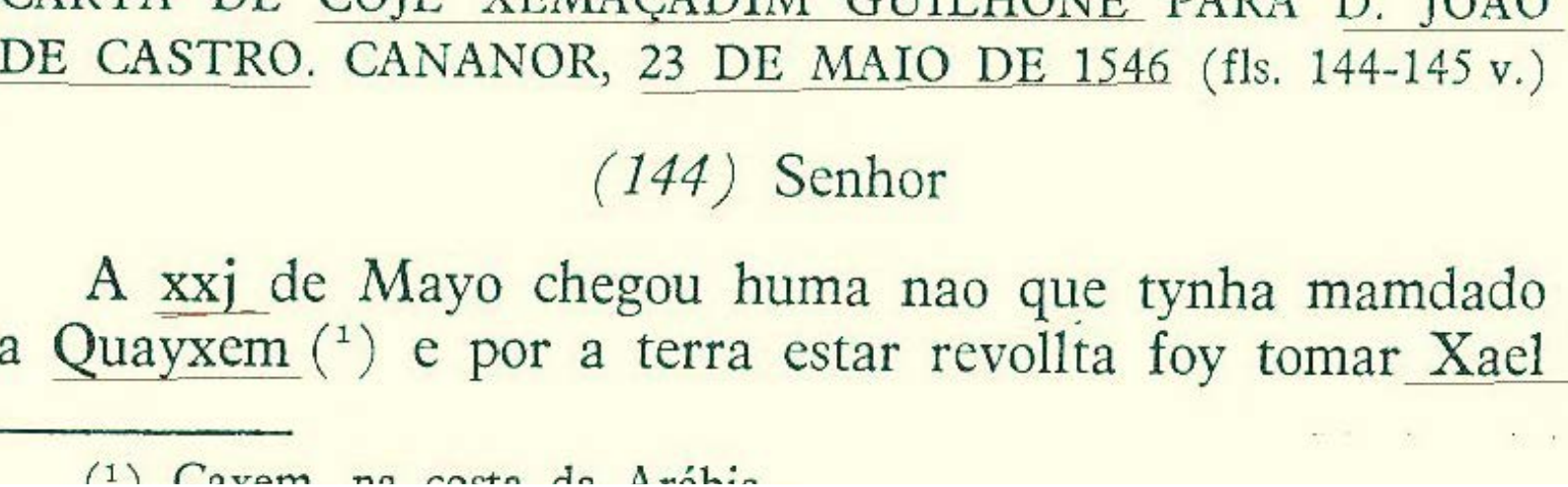

CARTA DE COJE XEMAÇADIM GUILHONE PARA D. JOAO
DE CASTRO. CANANOR, 23 DE MAIO DE 1546 (fls. 144-145 v.)

(144) Senhor

A xxj de Mayo chegou huma nao que tynha mamdado
a Quayxem (1) e por a terra estar revollta foy tomar Xael

(1) Caxem, na costa da Arábia

رسالة بتاريخ 23 مايو 1546، مرسلة من خواجة شمس الدين إلى نائب ملك البرتغال في الهند (جواو دي كاسترو)

الوثيقة الثانية:

ومن مجموعة تلك الوثائق كذلك، هذه الرسالة التي أرسلها أيضًا المدعو (مانويل دي فاسكونسيلوس) من «كنانور» إلى (جواو دي كاسترو) في 18 أغسطس من العام 1546، ويقول في الجزء الأوَّل منها: «في 17 أغسطس، وصل إلى كنانور (محمد دليم) من معارف خواجة شمس الدين، وقد وصل من جدة ومعه أخبار قد تسلَّمها عبر رسائل من شقيق شمس الدين الذي يعيش الآن في جدة، وهذه الأخبار تقول إنه في السنة الماضية، مات سنان جودي الذي انضمّ إلى قائد القوات البحرية التركية» [13]. هذه الرسالة أساس معلوماتها مقتبس من رسالة خواجة شمس الدين التي أرسلها إلى (جواو دي كاسترو) بتاريخ 17 أغسطس 1546، وتتحدَّث عن بعض أخبار مضيق باب المندب، وقد اطّلع عليها بالطبع (مانويل) من باب تدرج السلّم الإداري البرتغالي في إيصال الأخبار التي تهمّ البرتغاليين، ولها سرية عسكرية وسياسية، للمناصب العليا، كي تتّخذ القرار المناسب بشأنها، ذلك أنَّ شمس الدين يذكر جدة أيضًا في رسالته تلك التي أرسلها إلى كاسترو، موضحًا أنَّ تلك الأخبار المؤكّدة جاء بها المدعو محمد دليم، وهي ضمن مجموعة الوثائق محطّ البحث نفسها [14]، ويذكر فيها أنَّ هناك رجلًا يهوديًا كان يعمل لصالح الأسطول [15] قُتل في منطقة قشن اليمنية [16].

المراجع:

1. قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، الرياض، 1967، ص 232.

2. انظر نصّ الرسالة.

3. انظر:

ANTT, Corpo Chronologico (cc), 179,134-.

4. سلطنة العادل شاهات في بيجابور: سلطنة إسلاميَّة نشأت في الدكن جنوب الهند بعد سقوط دولة البهمانيين. حكمت هذه السّلطنة الإسلامية سلالة متتالية من السلاطين بين أعوام 1490-1686م، إلى أن قام السلطان المغولي أورنكزيب بغزو الدكن، وقضى على دولة العادلشاهات، ثم ضمَّ أراضيهم إلى مملكة المغول الهندية. انظر: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ط 3، القاهرة، 1990.

5. انظر:

Salman, M. H., ‹Aspects of Portuguese Rule in the Arabian Gulf, 1521–1622›, PhD thesis, unpublished PhD thesis, University of Hull, 2005.

6. انظر:

Colecção Ultramarina Portuguesa- VIII, São Lourenço, ed. Mariade Lourdes Lalande, Instituto De Investigação científica Tropical, (Lisboa, 1983), p. 314.

7. انظر:

See Ross, E. D.,» The Portuguese in India and Arabia, 151738-», JRAS, January, 1922 (London).

8. الدوم: لقب مشتقّ من الكلمة اللاتينية (Dominus)، وهو لقب تشريفيّ كان يطلق في البرتغال على طبقة الفرسان المميّزين، ويقوم مقام لقب السيد في المصطلحات التشريفية والتقديرية المستخدمة في الغرب اليوم. وقد أُطلق هذا اللقب أيضًا على طبقة النبلاء البرتغاليين الَّذين يعيّنون في منصب نائب ملك البرتغال في الهند في تلك الفترة. وكان الدوم آنذاك - كما تذكر الرسالة - هو المدعو جواو دي كاسترو، وهو الحاكم الثالث عشر في سلسلة حكام الهند البرتغالية، وعيّن بين أعوام 1545و 1546 في منصب نائب الملك البرتغالي في الهند، وهذا المنصب في السلم الوظيفي السياسي في المستعمرات البرتغالية الشرقية كان أرفع منزلة في السلطات السياسية وأقوى تأثيرًا في الأحداث من منصب حاكم عام الهند. وكان كاسترو من أهم نواب الملك في الهند تنظيمًا وسياسةً في تلك الفترة الحرجة في المحيط الهندي، وبالذات مع ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث في المياه الشرقية لمقارعة البرتغاليين.

L.de Albuquerque, Dicionário de História dos Descobrimentos Portugueses (Lisboa, 1994), Vol. I, p. 359; A- Salman, M. H., ‹Aspects of Portuguese Rule in the Arabian Gulf, 1521–1622›, chapter 4.

9. قد يتبادر إلى الذهن بأنَّ المقصود باسم (Quayxem) هو جزيرة قشم (الجسم أو الطويلة كما يطلق عليها أهل الخليج)، وتقع إلى الشمال الغربي من جزيرة هرمز في مدخل الخليج العربي، بينما المقصود هنا هو مدينة وميناء «قشن» في اليمن، حيث

كتبت قشن اليمنية في الوثيقة كما تكتب قشم الخليجية، لذا وجب التنويه. ومدينة (قشن) التاريخية تقع بين ميناء سيحوت ورأس فرتك على ساحل بحر العرب، وكانت عاصمة السلطنة المهرية التي قامت في شرق اليمن قديمًا. وتقع المهرة في الجزء الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية بين خطي العرض (15-18)، وتلامس الحدود الشرقية لليمن مع سلطنة عمان. أما من ناحية الغرب، فتحدّها محافظة حضرموت، ومن الناحية الشمالية الربع الخالي، وجنوبًا البحر العربي. وقد وصلت حدود سلطنة المهرة في بعض مراحلها التاريخية إلى (الشحر) غربًا و(حاسك).

10. شيل (Xael): ليس هناك ميناء يمنيّ في تلك الفترة يُسمى شيل، ولكنَّ البرتغاليين جرت عادتهم على تحريف أسماء الأشخاص والمناطق العربيَّة والإسلاميّة، لعدم معرفتهم بأساسيات اللغة العربية وصعوبة لفظ أسماء الأماكن الجغرافية كما تكتب وتنطق. والمقصود من هذا اللفظ هنا، منطقة الشحر (بالكسر) اليمنيَّة. وكما يوضح الهامش في أسفل الصّفحة الأولى من الرسالة البرتغاليَّة بأنَّ هذا الميناء، وهو «الشّحر»، يقع بين عدن وفرتك، وهو ميناء باسم المملكة التي كانت تضمّه على الساحل العربي للبحر الأحمر. (المترجم). ومدينة الشحر اليوم على ساحل البحر العربي إلى الشرق، وتبعد عن مدينة المكلا بنحو 62 كم. والشحر قديمًا كان اسمًا يُطلق على ساحل حضرموت عمومًا. وكانت الشحر في تلك الفترة التي ذكرت في الوثيقة تحت سيطرة السلطان الكثيري بدر أبو طويرق، وظلَّ الكثيرون فيها حتى القرن الثاني عشر الهجري، ثم صارت تابعة للسلطنة القعيطية في القرن العشرين وحتى الاستقلال.

انظر: اليماني، عبد الواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن (صنعاء، د.ن.).

11. لم أعثر على اسم هذا القائد البحريّ التركيّ ضمن الأسطول العثماني في البحر الأحمر، وخصوصًا أنه لُقِّب في الوثيقة البرتغاليَّة بسنان أو سيماو جودي. ومن المعروف أنّ هناك قائدًا في البحرية العسكرية العثمانية يُدعى سنان باشا الخادم.

12. انظر:

Colecção Ultramarina Portuguesa- VIII, São Lourenço São Lourenço, pp. 340.

13. انظر:

Ibid., pp. 35253-. (fls. 162163- v.).

14. انظر:

Ibid., pp. 35455-.

15. لم توضح الرسالة أيَّ أسطول، وإذا ما كان القائد نفسه الَّذي ذُكر في الوثيقة الأولى أم غيره.

16. انظر:

Colecção Ultramarina Portuguesa- VIII, São Lourenço São Lourenço, p. 354.

د. محمّد السّلمان: باحث بحريني متخصّص في التاريخ، أعدّ أطروحة دكتوراه في جامعة هال البريطانية حول المظاهر السياسية والاقتصادية للحكم البرتغالي في الخليج. صدرت له مجموعة من الكتب التاريخية والترجمات.
للتواصل عبر الإيميل: adoommoon@gmail.com

DE COGE XEMAÇADIM GUILHONE PARA D.
TRO. CANANOR, 13 DE MAIO DE 1547 (fls. 172-1

(172) Senhor

u irmão me escreveo de Juda (1) as novas que
la do turquo que esta asy como estava e que ho tu
ada pera vyr a Ymdya a hum cryado que foy de
2) (?) que he capytão descamdabya (?) e que s
oamdo vyra. *E* asy escreveo que se allevamtara o
ame comtra seu pay senhor da serra e mamdara
o turquo pera tomar as terras do pay e se faze
o *(sic)* e que mamdara ho turquo hum capitão
myll homems e que tynhão tomado parte da fa
e que mamdara este capytão que se não tornac
horear todo ho estreyto e que ho Ymame se aco
fustas que foy a Masquate.

رسالة بتاريخ 13 مايو 1546، مرسلة من شمس الدين في كنلنور إلى نائب ملك البرتغال في كوا (جواو دي كاسترو)

صورة حديثة لعين الكعبة في سيهات قبل هدمها وإعادة ترميمها

ذاكرة الصورة

نهايات النّبع الكبير

أثير السادة

في امتداد البرّ المحيط بأطراف سيحة سيهات، كانت عين «الكعبة» التاريخيَّة تملأ سكون المكان بهدير مائها الصافي. تضيع كلّ الصور في ذاكرة الأجداد عن العيون الصَّغيرة المتناثرة في حدود المكان حين تحضر صورة «إشعبة»، كما ينطقها أهل المنطقة. ثمة ما يهب الفرادة لهذه العين التي يفضّل المؤرخون ربطها بتاريخ القرامطة وقصة الحجر الأسود الذي جرى ترحيله في مروياتهم إلى هنا؛ فرادة لها حظوظ من الواقع أكثر من تلك الظنون التي ما تزال تراوح في حدود الترجيح. ففي قبال ما يراد لنا استذكاره من سيرة هذه العين، هناك سيرة غير مكتوبة عن كرمها وقوّة دفقها وفعلها الاجتماعي، قبل أن تحملها الرمال المتحركة إلى رفّ المنسيات في الذاكرة.

البساتين الواسعة التي كانت تحيط بهذه العين إلى ما قبل نصف قرن، ليست الدليل الوحيد على نصوص الحياة التي كتبتها في سنوات زهوها، بل حتى مساحات النخيل البعيدة التي كانت على أطراف «إبردان» في سيهات، أي على بعد ما يزيد على ثلاثة كيلومترات من موقع العين، كانت هي الأخرى الشّاهد على اخضرار المكان ببركات هذه العين التي تسافر في نهاية كلّ يوم باتجاه الشرق، حيث الخليج بمثابة المحطة الأخيرة للفائض من مائها.

لا أحد يملك هذه العين النبّاعة التي يقطع ماؤها مسافات قبل أن يتصرّف الفائض منه في البحر، غير أن لها دفترًا ينظّم يوميات السقاية فيها؛ دفترًا يديره صاحب الأرض التي تصدر عنها. في هذا الدفتر، خرائط لهذه الرقعة الزراعية، لكنها بلا خطوط، وإنما أسماء وأوقات يعرف من خلالها الماء طريقه اليومي.

لا أحد يوقف الماء الهادر، فهو يعبر يوميًا عبر قنوات السّقاية في سرعة مدهشة، قبل أن يأخذه جدول السقاية اليومي عبر الممرات الفرعية إلى نخيل سيحة سيهات الممتدّة، ومثلها نخيل الجشّ القريبة. هناك في سطور الدفتر مقاييس تستند إلى حركة الظلّ في النهار والنجوم في الليل، حيث الساعات كانت في حيِّز الغياب آنذاك. ثمة «أوضاح» يجري توزيعها بين أصحاب النخيل، ويراد بها نهار اليوم ومساؤه. ثمة «ربع وضح» و«نصف وضح» و«وضح كامل»، وهي مرصودة بقياس

الظلِّ الَّذي يجري تحديده من خلال ركز جذع في المكان، في ممارسة تشبه طريقة المزاولة، فتكون السقاية مستحقّة عندما يبلغ الظلّ مقدارًا من الأقدام في واحدة من اتجاهات الظل. عندها، يصبح من واجب متعهّد النخل، إن كان مالكًا أو مستأجرًا، أن يغلق «مِسكر» النخل الذي قبله، ويفتح الطريق إلى نخله وهكذا، بينما تقسم مدة السقاية في الليل على نحو «ربع الفجري» أو «ثمين الليل» وسواها من التقسيمات، بالإفادة من منازل القمر ومواقع النجوم.

تختلف مدة السقاية بين نخل وآخر باعتبار المساحة ومقدار الحاجة، وهي مسألة يتصالح فيها أهل الصنعة من الفلاحين في المنطقة، بحيث تصبح نافذة ومعتمدة ضمن التوزيع اليومي للسقاية، من دون أن يعني ذلك تمييزًا بين المستفيدين وفق حسابات خارجة عن ترتيبات السقاية نفسها، فالمسافة في الدفتر ترسمها ظلال النخيل واتساعها قبل أي شيء، وهي ترتيبات معتبرة ومحترمة إلى الحدِّ الذي يجعلها ضمن صكوك البيع والشراء لهذه النخيل، كما في صك أرض «نخل الشطبان والمغسلة» الموثّق في العام 1352هـ، حيث يرد في نهايته: «وليعلم أنّ لها من الماء يوم الجمعة يلزم من على حقروص وميسور من اثني قدم في الشرق إلى ثمين الليل من ثامن مداورة، دور لهما ودور إلى جمة «يمة» الزاكي، ولهما أيضًا يوم الثلاثاء من قدم ونصف القدم في الشرق إلى اسلوم الشمة، دور في النهار ودور في الليل من بعد نصف الليل بقدم ونصف القدم إلى صلوة العاجز، وهو المعروف بما قبل طلوع الشمس».

وبحسب المسح الهندسي للمنطقة في العام 1431هـ، فإنّ شطرًا من العين يقع ضمن نخل الشطبان والمغسلة التابع لبيت خريدة من أهالي سيهات، بينما يقع الشطر الثاني ضمن شارع معتمد في آخر تخطيط للمكان، ويحدّ العين في جميع اتجاهاتها قطع نخيل تابعة لأهل هذه البلدة، ما عدا الجهة الشمالية التي تقع فيها أرض وقف تحت يد «محسن باقر العوامي».

كانت للعين «مَهدّات» ثلاثة، بفتح الميم وتشديد الدال، وهي جمع «مهدة» في معجم الفلاحين، وتعني الفتحات التي تدفع الماء إلى خارج العين، واحدة باتجاه الشمال، تسقى منها نخيل أهل الجش القريبة، وثانية باتجاه الشرق، وثالثة باتجاه الجنوب، وتستفيد منها نخيل منطقة الشعبة وأم الغزلان وبرزة والعمارة وشريقي وسواها، وصولًا إلى «إبردان» على مقربة من الساحل، فيجري الماء من «المهدات» عبر «التناقيب»، أي ممرات – قنوات - الماء المغطاة، في اتجاهاتها الثلاثة، لتغسل الشروب الواسعة، وتسقي النخيل الفارعة الطول، ومن ثم ينسال الزائد من ماء السقاية في «السيبان»، وهي جمع «ساب»، ويراد به قنوات الصرف التي ستأخذ الماء في رحلته اليومية ناحية الخليج.

ولأنها تموضعت في حدود البرّ، كانت الرمال المتحركة تزاحمها في وجودها، وهي تطمر بحركتها الدائمة جسمها الخارجي، وتدفع بالكثير من الرمل إلى داخلها. وبمثل ما بُنيت قنوات ريّ مطمورة لمرور الماء من أجل تجاوز مشاكل الرمال المتحركة، جرت محاولة رفع جدران العين أكثر من مرة باستخدام الحصى والصخور، بعد أن كانت العين في بداياتها في شكل «شريعة»، كما هي الكثير من العيون الطبيعية في المنطقة.

قوة الدفع التي تمتاز بها عين الكعبة مكّنتها من طرد الرمل عنها في كثير من الأحيان، غير أنَّ الهجمات المتكررة لهذه الرمال، كانت تتسبَّب في إضعاف قوة العين في بعض المرات، الأمر الذي يستدعي تنظيفها بالاستعانة بـ«الغاصة»، وهم غواصون عرفوا مهنة الغوص في البحر، من أجل إخراج الرمل المتجمّع في فوهة العين، وهي مهمّة تستغرق مددًا طويلة، تصل في بعض الأحيان إلى ثلاثة أشهر متواصلة، يعمد فيها الغواص أو الغواصون إلى صنع حفرة في عمق العين، واستخدام «الصخين» بعدها، لاستخراج كميات الرمل العالقة فيها.

في هذه العمليّة، تُجلب ثلاثة من جذوع النخيل الطويلة التي يصل طولها إلى عشرين مترًا، وتُجرّ إلى موقع العين بالحبال، بحيث يوضع نصفها في الداخل والنصف الآخر في خارجها، لتكون بمثابة الجسر الَّذي يتيح للعاملين الوقوف عليه، ونقل الرمل الذي سيجمعه الغواص في «الزبيل» إلى خارج العين.. كانت مهمّة شاقّة نظرًا إلى الكمية الكبيرة من الرمال التي ترفع من داخل العين. هذه العملية كانت تحدث كلّ عشر سنوات، ولكن، وفي سنواتها الأخيرة، باتت الحاجة إلى تنظيفها تتكرّر كلّ خمس سنوات.

هنالك في المقابل عملية تنظيف أخرى أبسط وأقصر تطاول ممرات الماء المغطاة، حيث يعمد المنظّفون فيها إلى استخدام «الثقبة»، وهو برج صغير للتهوية على طرف المجرى، وفي تجويفه ما يشبه الأدراج تسمح بالصّعود والنزول، يستخدمونه لرفع الرمال التي تعيق حركة الماء في المجرى وإزالتها، وتُسمّى هذه العملية بالأردبة.

لقد مضت هذه العين «المرحومة» إلى صفحة النسيان بعد انطمارها بالرمل وانقطاع مائها، وهي مرحومة في وصف أحد الفلاحين، لأنها لم تبتلع أحدًا، ولم تكن سببًا لوفاة أحد، على خلاف العيون التي تشابكت مع قصص الموت، وإدعيدع، وعبد العين، وأقاصيص الجن، فقوة دفع العين كانت كافية لطرد الأجسام عن الغرق فيها.

ماتت عين الكعبة، ومعها غاب فريج «الشعبة» الَّذي سكنته بعض عوائل الجش على تخوم هذه العين، مستفيدة من سيوبها العابرة فيها، وغابت الكثير من البساتين والنخيل التي عرفتها معاول الفلاحين في سيحة سيهات، لتكتب الصحراء بقسوتها شهادة الوفاة لعين فائضة بالكرم.

مضت هذه العين «المرحومة» إلى صفحة النسيان بعد انطمارها بالرمل وانقطاع مائها، وهي مرحومة في وصف أحد الفلاحين، لأنها لم تبتلع أحدًا، ولم تكن سببًا لوفاة أحد، على خلاف العيون التي تشابكت مع قصص الموت،

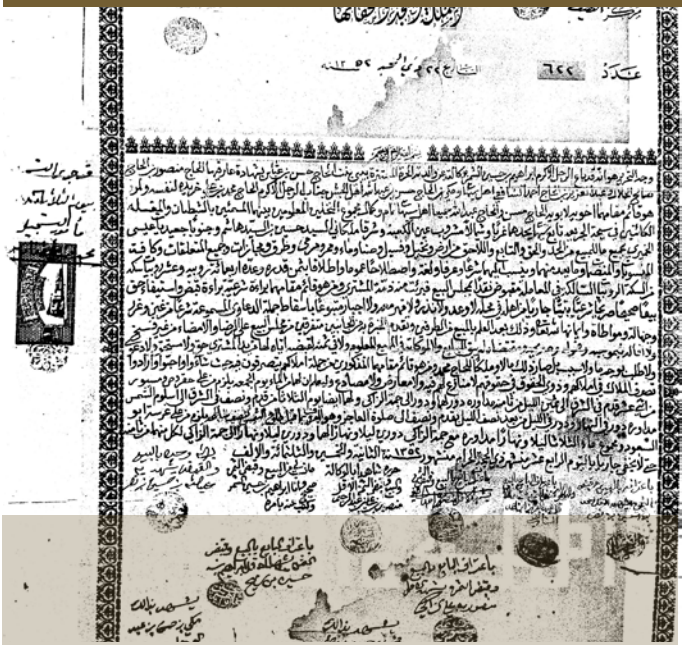

نسخة من صك الأرض التي تقع عين الكعبة ضمن حدودها

تلك العين التي طوت بمائها المسافات الطويلة، وغطّت المساحات الشاسعة، طويت صفحتها شيئًا فشيئًا في أواخر الستينيات. غلبتها ريح الشمال وهي تحمل الرمال إلى جوفها، كما غلبتها سطوة الوقت وتحولاته، وموجة البحث عن الزيت، فباتت أثرًا بعد عين. ضعفت وضعف كلّ شيء حولها، حتى توقّف قلبها عن النبض وماؤها عن الجريان، لتكون بذلك النهاية الأولى لسيرة عين أيقظت كلّ وعود الخضرة في ربوع المكان، ووعود الفرح المؤجلة لأولئك الذين اعتادوا الركون إلى مائها في فسحة السّباحة وفسحة السقاية، فيما كانت النهاية الثانية يوم تم تسويتها مع الأرض، وردم ذاكرة بطول قرون مديدة، ولأنها منسيَّة في دفاتر الآثار، لم يكن فعل الهدم بعيدًا عن حظوظها، حتى وإن تم محاولة استدراك هذه الأخطاء بإعادة ترميمها.

المراجع:

1. الشهادات الشفاهية: الحاج حبيب المغاسلة أبوسعيد، الحاج عبدالله جواد الخاتم، الحاج أحمد خريدة.
2. الوثائق: الأستاذ جواد خريدة.
3. الصور: الأستاذ محمد الشافعي، الأستاذ علي آل طالب.

أثير السّادة: كاتب مهتمّ بقضايا الصّورة ويمارس التصوير والكتابة في هذا المجال. صدر له كتاب بعنوان «تحولات الصورة»، وألبوم فوتوغرافي يحمل اسم «تيارم»، يوثق يوميات البيئة الزراعية في القطيف.

للتواصل عبر الإيميل: atheer93@gmail.com

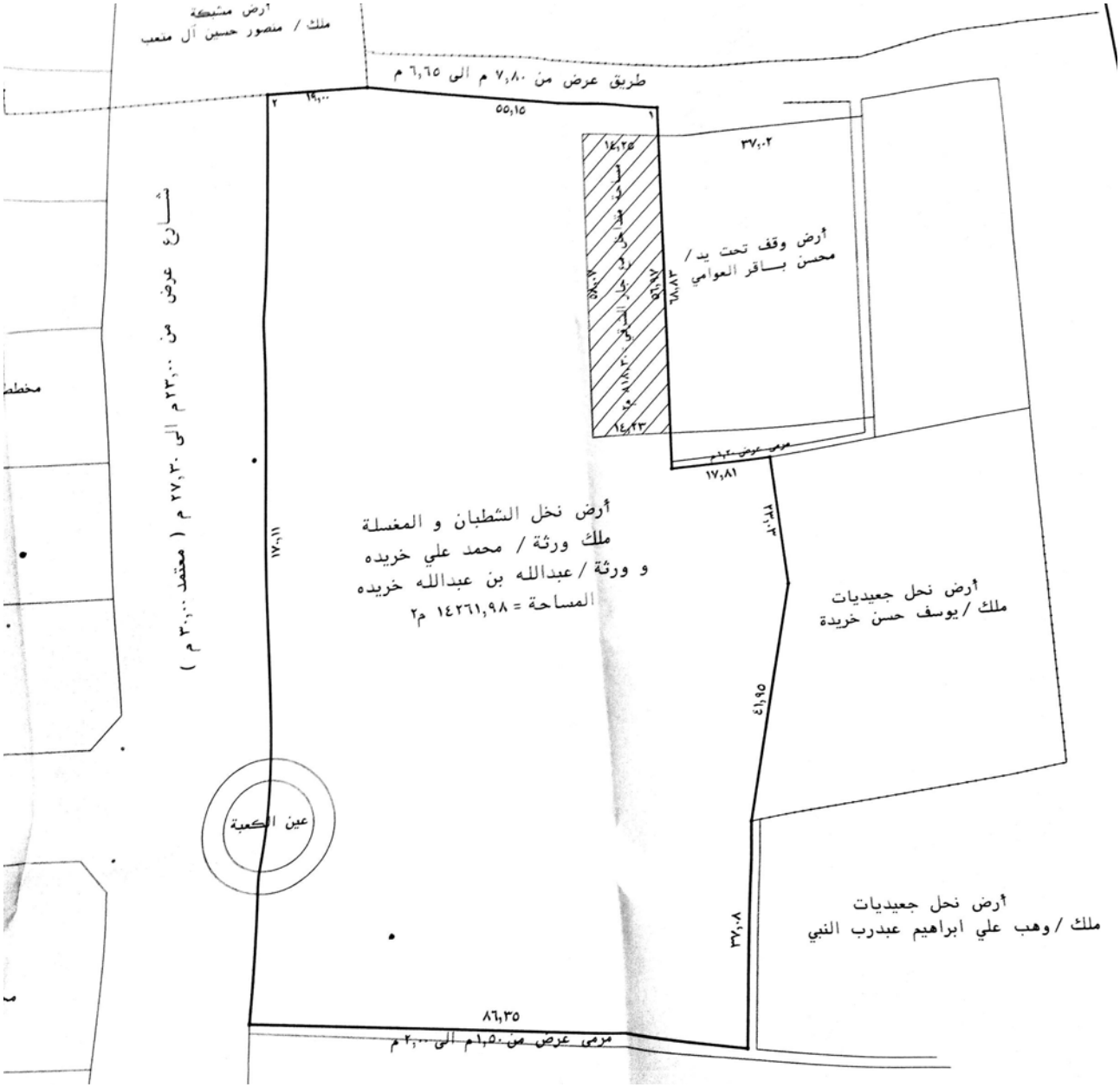

خارطة تحدد هُوية المزارع المحيطة بعين الكعبة

حي الأميركان..
ذاكرة شفهيّة حيّة

تغريد الزناتي

تخاله أكبر من شارعين، وتخاله أيضًا مكتظًّا بالسكّان والمحال التجارية من كلّ جنب. حيّ الأميركان قد يكون من أكثر الأحياء هدوءًا في الضّاحية الجنوبيَّة لبيروت.

يقع الحيّ بين منطقتي الحدت والشياح، وينقسم، رسميًا، بين البلديّتين. يتبع أحد شارعيه لمنطقة الحدت، والشارع الآخر يتبع لبلدية الشياح. هذا الاختلاف قد يكون الوحيد في هذا الحيّ، فأهل المنطقة هنا يعيشون بانسجام تام على تنوّع انتماءاتهم الدينيَّة والثقافيَّة والمجتمعيَّة.

تعود تسمية الحيّ إلى منتصف القرن الماضي، حين سكن موظّفو السفارة الأميركيّة في إحدى عماراته. كانت العقارات قليلة في هذه البقعة بالتّحديد. وفيه انتشرت بساتين الخضار والفاكهة سابقًا، «من هون للسّان تيريز»، يروي عدنان رضا، أحد أقدم سكّان الحي.

يعيش عدنان وزوجته في حي الأميركان منذ ثلاثة وعشرين عامًا. المبنى الذي يقطنان فيه هو أيضًا من أقدم المباني في المنطقة. يدلّنا عدنان على بناية حديثة تتألّف من عشر طبقات وموقف في مقابل منزله. يقول واصفًا الأيام الغابرة: «كان ثمة بيت أرضي في هذا المكان، استخدمته جماعة الكتائب خلال الحرب الأهلية. كان فيه خطّ تماس، وهذه المباني لم تكن موجودة كلّها». ينظر إلى المباني من حوله، وقد أظلم ما حولها من عمارات صغيرة ألغت مساحات خضراء مثمرة ضخمة، لتنهال بثقلها فوق منطقة البساتين.

الحرب مرّت من هنا!

معارك عديدة تمَّ خوضها من أرض الحيّ. كتائب القوات اللبنانية اتخذت من المنزل الأرضي (في آخر الشارع الأول

من الحي) متراسًا تلقَّت فيه ضربات وقَصف، وألقت منه القنابل والرصاص والمدفعية و«الراجمات».

بعد الحرب اللبنانية، عندما دخل أهالي المنطقة إليها، نفضوا عنها غبار الذكريات المهولة، فأُزيلت الدشم من المنزل الذي دُمّر، لتُبنى دونه عمارة بيضاء طويلة، ولدت في شققها ذكريات جديدة سعيدة.

آوى الحي آنذاك مهجّرين من الجبل، اتّخذوا منه ملجأً إبان الحرب، إلى أن أقام البطريرك مار نصر الله بطرس صفير «المصالحة» بين الأطراف المتنازعة، وعادوا على إثرها إلى ديارهم.

معظم المباني المتضررة التي شهدت على القصف المدفعي والرصاص الطائش ترمّمت بعد حين، حتى تكاد لا تميّزها عن أجدد المباني المجاورة، لولا إشارات السكّان القدامى إليها.

«الحيّ» بين الأمس واليوم

«كنا نشتري الملفوفة الكبيرة بمبلغ 500 ليرة. كانت كلّها لذيذة وطازجة». عبارة أطلقتها ماري روز، زوجة عدنان، وهي تهمّ بإخبارنا عن بساتين من الأكيدنيا والليمون، بالكاد تستطيع أن تذكرها بعد أن تقلّب الحيّ القديم بهجوم من باطون وجرافات.

يؤكّد هذا الوصف الأستاذ أنطوان الشنتيري، مستشار رئيس بلدية الشياح، ويؤكّد أيضًا أنَّ الأعمال المعمارية وتوسُّع العقارات والأشغال قد ازدهرت بعد الحرب اللبنانية (1975-1990)، لتنال من المساحات الخضراء شيئًا فشيئًا، حتى زوالها.

أكثر من 1500 وحدة سكنيَّة تحتلّ المنطقة اليوم، منها مشاريع ضخمة، ومنها مبانٍ متواضعة، وأكثر من 6000

الإهمال الذي يتعرّض له الأرشيف داخل المؤسسات أصبح موضوعًا عابرًا. من الصعوبة أن يكترث له أحد، لكونه غالبًا ما يكون في آخر سلّم الأولويات داخل هيكلية المؤسَّسات.

بلدية الشياح في بيروت

نسمة يسكنون البساتين القديمة في مبانٍ من الباطون تفرّق بينها شجرات يتيمة، وهم ينقسمون بين بلديتين.

أرشيف شبه معدوم!

في محاولةٍ للحصول على موادّ بصرية عن المنطقة، وبعد جهد في البحث في أرشيفٍ يبدو أنه مشرذم وغير منظّم، نسبةً إلى الصعوبة التي واجهتنا في الحصول على بيانات عن المنطقة قيد التحقيق، لم نستطع الوصول إلى صور قديمة لتبيان الاختلاف الذي شهده حي الأميركان ليتحوّل من بستان مثمر نضر إلى حيّ سكني مدني. لا وجود للمنطقة كما كانت في الماضي على الورق.

رغم تعاون الأستاذ إيلي منمنم، أمين سر مجلس بلدية الشياح، لم نستطع الكشف عن مواد تترجم حكايا سكان الحي أو تضعنا ضمن إطار يشبع خيالنا في محاولة رسمه المنطقة، كما كانت على هيئتها السابقة. وحدها روايات الأهالي هنا، والأخبار التي يتناقلها أطفال عن لسان كبار السن وهم يلهون أمام منازلهم، تستطيع أن تقدّم لنا المعلومات حول التحوّل الذي أصاب «حي الأميركان».

أرشيف المنطقة هنا شبه معدوم. السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا؟

إنَّ الإهمال الذي يتعرّض له الأرشيف داخل المؤسَّسات أصبح موضوعًا عابرًا. من الصّعوبة أن يكترث له أحد، لكونه غالبًا ما يكون في آخر سلّم الأولويات داخل هيكلية المؤسَّسات من جهة، ونظرًا إلى الميزانية المخصّصة له من جهة أخرى. هذا أمر معلوم، لكن ما يزيد الطين بلّة هو الصّعوبة في الحصول على إذن يسمح لمصّور بالتجول في الشوارع والأزقّة والتقاط الصور بحُرّية بغرض إتمام بحثٍ أو تسليط الضوء على خبايا معينة أو حتى لحفظ ذاكرة المنطقة (أمر لم يتحقّق). يتمّ الاستحصال على الإذن من خلال بلدية الشيّاح، إضافةً إلى موافقة حزبية ذات سلطة في المنطقة.

أمر مؤسف ألا يكون معنا مواد نرفقها اليوم مع هذا المقال، وأمر محزن ألا نتمكّن من مشاهدة صورة حي الأميركان منذ أربعين أو خمسين عامًا. العزاء الوحيد الذي يواسينا، هو إمكانية الوصول إلى من سكن المنطقة يومها، وإلى من يملك من المعلومات ما يفرج عن همّ غياب الصورة والوثائق. أشخاص مثل عدنان رضا وماري روز.

ذاكرة معنويّة

نغادر حيّ الأميركان الهادئ، وصوت العصافير فوق رؤوسنا يدخل الآذان بكلِّ أناقة، كأنَّ الطيور أيضًا لها حكايا هنا. هنا أرض أسلافها، كان لها أعشاش بين أغصان الأشجار المثمرة، وكانت تقتات من ثمار البساتين التي أُزيلت عنوةً.

نترك حيّ الأميركان، ورائحة الخبز والكعك الطازج تترك فينا حنينًا إلى زمن بسيط ولّى ولن يعود، وذاكرة منطقة تذبُل كلّما مرّ عليها الزمن.

تغريد الزناتي: حائزة على ماجستير في الإدارة والمعلومات، وتعمل في قسم أرشيف جريدة الأخبار اللبنانية منذ العام 2013.

للتواصل عبر الإيميل: taghridzinaty@hotmail.com

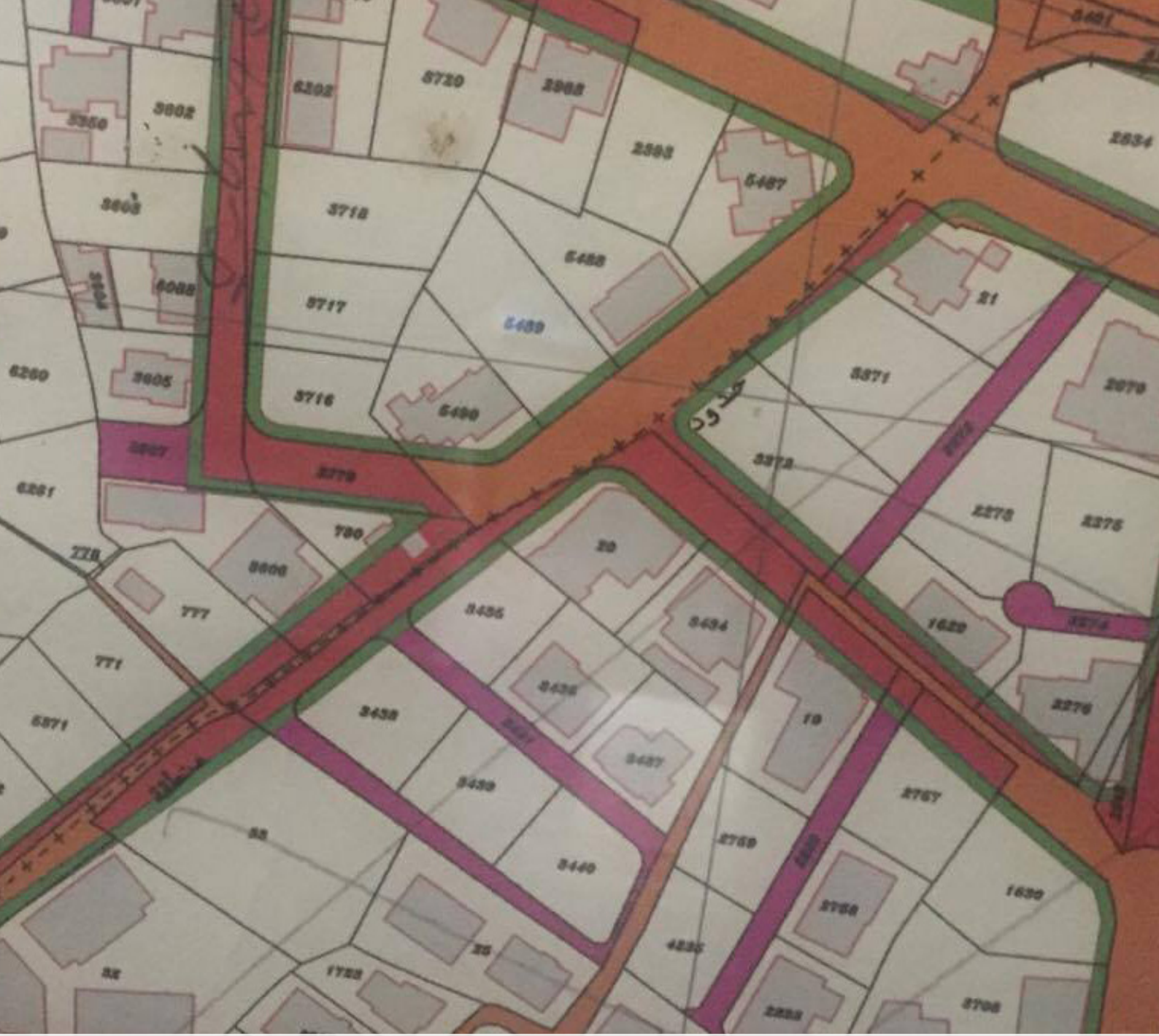

خريطة حي الأميركان التابع لبلدية الشياح في بيروت

عن تُكَوِّن نفسها في زوايا الذاكرة: «معتقل أنصار»

غنى مونس

كان ذلك في مسرح الأونيسكو في بيروت في العام 2010. فرقة العاشقين الفلسطينية الشهيرة على المسرح، وأغنية تتلألأ في زوايا القلب والذاكرة:

«يموت البغي والطغيان ويحيا شعبنا [...]

جمع الأسرى جمع بمعسكر أنصار»

في تلك الليلة، عدت جذلة إلى المنزل. كانت المرة الأولى التي أشهد فيها حفلًا مباشرًا لفرقة ثورية، وأستمع إلى أغانٍ وأناشيد لطالما هدهدت أيام طفولتي، وكان تُبَثّ من إذاعة «صوت القدس» على الراديو، من فلسطين.

جلست طويلًا أمام شاشة جهازي، حاولت أن أستذكر كلمات الأغنية. «جمع الأسرى + معسكر أنصار»، كانت تلك كلمات البحث مع صديقي غوغل، ووجدت الكثير الكثير.

أول ما وجدته كان كلمات بصوت معتقلين فلسطينيين.

وبدأت جولتي.

«جمع الأسرى جمع في معسكر أنصار

والشمس لما بتطلع بتواعد الثوار

حبستوا جسم البطل ما حبستوش الروح

روحه بحجم الجبل تحمل عنا الجروح

إلليلي هبت نسمة يا نسمة ويا حنين

قولوا عني لأمي على العهود أمين

شمس الحرية فينا مين يحبس الشموس

والفجر بينادينا شو رح تعمل النفوس

سجن العدو ما يقدر يحجب عنا الاوطان

إحنا لفلسطين معبر حنا فدا الأوطان»

وانطلقت عملية البحث...

من الفيديوهات على يوتيوب إلى الصور على غوغل، وكان أبرزها: «حنظلة ناجي العلي، إلى جانبه معتقل وراء الأسلاك الشائكة للمعتقل، ويقول: كما أهدي سلامي إلى جميع المعتقلين في السجون العربية.. أنا بخير.. طمنوني عنكم».

اعتقدت أنني وجدت ضالتي، صفحة على الفايسبوك باسم «معتقل أنصار».. تجوّلت فيها طويلًا.. قرأت كل منشور وكلّ تعليق.. شاهدت كلّ صورة وكلّ فيديو.. غير أنّ قلبي لم يرتوِ بعد. لا بد لي من أن أزور معتقل أنصار، أن أقف في ذلك المكان، وأن يروي لي كل ما شهده.

«مهاجر إلى أنصار»، كتاب للأستاذ لامع الحر، وهو أديب لبناني عاملي، وثّق بأحرفه أبشع الصور التي تعرض لها المعتقلون آنذاك، يقول فيه إنّ«أنصار ليس نزهة. أنصار وحده أرّخ المرحلة الراهنة..».

معتقل أنصار في جنوب لبنان - 1983

المرحلة الأولى

بدأت بجمع المعلومات عن المعتقل، منها ما وجدته على ويكيبيديا، على الرغم من كونه مصدرًا غير موثوق، ومنها ما وجدته في أماكن أخرى. عرفت أن قوات الاحتلال أقامته بعد شهر تقريبًا من احتلالها جنوب لبنان، الذي بدأ في 6 حزيران/ يونيو من العام 1982، وافتتحته في 14 تموز/ يوليو من العام ذاته على أرض كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أنشأت عليها مطارًا أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، استعمله الفلسطينيون لفترة وجيزة، ثم جاء الإسرائيليون واستعملوه مطارًا لوجستيًا أثناء الاجتياح، وحولوه إلى معسكر أقاموا فيه المعتقل الشهير في تلك الفترة.

في المرحلة الأولى من الاجتياح الإسرائيلي، كانت الأعداد الكبرى من المعتقلين هي ممن اعتقلتهم القوات الإسرائيلية من المخيمات الفلسطينية في لبنان، الذين لم يتمكّنوا من الهرب إلى أماكن أخرى، وكان عددهم بضعة آلاف، بينهم بضعة مئات من اللبنانيين الذين اعتُقلوا في ظروف مختلفة.

وبعد أن أجبرت المقاومة اللبنانية القوات الإسرائيلية على الانسحاب من بيروت والجبل وصيدا والزهراني وصور والبقاع الغربي، اكتمل الأمر بإقفال معتقل أنصار في 4 أبريل/ نيسان 1985.

وبدأت الصور تتوالى

من ضمن ما وجدته، أننا لا نستطيع أن نتكلّم عن معتقل أنصار من دون أن نستذكر ما يُسمّى «عملية الفرار الكبير»، وهي عملية تمت في 8 آب/ أغسطس من العام 1983، حين قاد المعتقل عاطف الدنف الملقب بـ«ثائر» عملية فرار من المعتقل على رأس مجموعة تضم 30 معتقلًا، ونجحوا بالفرار على الرغم من الحراسة المشددة وملاحقة ملالات وطائرات العدو الصهيوني لهم بعد اكتشاف فرارهم.

وكانت خطّة الفرار التي خطّط لها وقادها [عاطف الدنف] تقوم على حفر نفق ترابي يمتدّ من إحدى الخيام داخل المعتقل إلى خارجه. وقد قام عشرون معتقلًا بالتناوب على حفر النفق الذي امتدّ طوله إلى 27 مترًا، وعمقه متران ونصف المتر، على الرّغم من الصعوبات التي واجهها المعتقلون أثناء حفر النفق، ومنها انقطاع الأوكسجين ووجود حجارة وصخور صلبة، وقد سُمّي النفق لاحقًا «نفق الحرية».

حجارة وصخور صلبة، وقد سُمّي النفق لاحقًا «نفق الحرية».

نيغاتيف رقم 1

بمجرد أن ذكرت اسم عاطف الدّنف، برزت صورة أخرى في أفق الخيال، تعلو فيها «الصرماية» على النجوم. لم ينقلب كوكب الأرض، لا ولا السماء. كل ما في الأمر، أنه، في أحد الأيام، علّق المحقق الصهيوني في معتقل أنصار، الشهيد (المعتقل آنذاك) عاطف الدنف، مرفوعًا على السلم بالمقلوب، وصاح به: «مبسوط يا مخرب؟»،وكان لوقع رد فعله الصاعقة: «مبسوط كتير، لأنو صرمايتي فوق نجومك».

نيغاتيف رقم 2

لماذا معتقل أنصار؟ لأنه شغفني ثورة، لا بد لي من الذهاب إلى هناك، لأعرف سبب ذلك اللهب الذي اشتعل في قلبي فجأة. بدأت أسأل المحيطين من أقارب وأصدقاء، وكان الجواب مفاجئًا: «لم يعد هناك ما يُذكّر بالمعتقل.. هُدِم منذ زمن بعيد».

صدمني ذلك، أنا التي أؤمن بأنه لا بد لنا من أن نخلد ذاكرة شعبنا بأدقّ تفاصيلها، أصابني غضب وإحباط شديد. حلّ المنتزه مكان المعتقل، والمكان الذي كان يُجدَر به حفظ الذاكرة تلاشى وغاب، غير أنني صمَّمت على أن أحيي تلك الصورة في رأسي. لن يستطيعوا أن يمحوا المعتقل من ذاكرتي كجنوبية، مهما كلّف الأمر.

قررت أن أبحث أكثر، وكانت المفاجأة! وجدت ما يروي غليلي، كان

كتابًا حملني على جناحيه، وسافر بي إلى معتقل أنصار.

نيغاتيف رقم 3

«مهاجر إلى أنصار»، كتاب للأستاذ لامع الحر، وهو أديب لبناني عاملي، وثّق بأحرفه أبشع الصور التي تعرض لها المعتقلون آنذاك، يقول فيه إنّ «أنصار ليس نزهة.. أنصار وحده أرّخ المرحلة الراهنة، ولسوف يؤرخ مراحل قادمة، ولسوف يمتد دافعًا لذلك الحلم الجميل».

يقول لامع الحر: «أنصار الذي كتبته، لم أضخّم أحداثه، ولم أضف عليها بعضًا من خيالاتي، ولم أختلق حكايات لا أساس لها ولا وجود، ذلك لأن واقعنا غني ببطولات حقيقية، ولا يحتاج تجميلًا أو زخرفة أو تلفيقًا.

كتبت أنصاري، موافقًا لأنصاركم، لكنه لا يدعي الشمولية، ولا يستطيع أحد ادعاءها، ذلك لأنّ لكل أسير قصة، لكل خيمة تاريخًا، لكل زنزانة مسلسلًا، ولكل معسكر حياة حافلة ومختلفة.

في «مهاجر من أنصار» أنتم وأنا، وذلك الانصهار الذي يعانق الموج كلما هبت ريح».

يقسم لامع الحر كتابه «مهاجر إلى أنصار» إلى قسمين:

الأول:

يتحدّث عن الفترة الممتدة من حزيران/ يونيو 1982 لغاية الأسبوع الأول من أيار/ مايو 1983، ويقول إنه اعتمد «في كتابة هذه المرحلة» على ما ورده «من معلومات تداولها الأسرى يوميًا كبراهين ساطعة على همجية الحضارة الصهيونية الزائفة».

الثاني:

يتحدَّث عن «فترة اعتقالي الممتدة من أواخر نيسان/ أبريل 1983 لغاية يوم تبادل الأسرى العظيم بين منظمة التحرير الفلسطينية، والدولة المسماة «إسرائيل» الواقع فيه 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1983».

نيغاتيف رقم 4

وجدت في أنصار، العربي الذي أحبّ، ذلك الذي، «رغم سطوة الجنود، ورغم شعورهم بالنصر، إلا أنهم كانوا يعرفون جيدًا [شجاعته] ويخافونها، كان أحدهم [الجنود الإسرائيليون] يحاول أن يرعب المعتقلين بقوله: «شوفوا.. أنا مجنون أكثر من العربي...»، كانوا يعرفون جيدًا، أنّ حياة الشّرفاء لا تساوي أكثر من موقف واحد جريء».

ورأيت المعتقل بعين قلبي، تجسَّد في مخيلتي معتقل فيه «عشرون معسكرًا، مساحة المعسكر الواحد ألف وخمسمئة متر مربع، وفيه ثلاث عشرة خيمة. الأسلاك تحيط بالمعسكر من كل جانب، بين المعسكر وأخيه، طريق ترابية لمرور الدبابات والملالات والمجنزرات على اختلافها، وعلى علو أمتار معدودة برج للمراقبة، وأنت قابع داخل الأسوار، لا تستطيع نطقًا أو حراكًا».

في أنصار، «افترش الأسرى الحجارة، التحفوا الهواء».

في أنصار، كان في أيدي الأسرى «سلاسل، سميناها قلائد من جمان، لأنها الدليل الوحيد على استمرار شموخ الصنوبر وسط ذلك العري الفاضح، ولأنها الطريق الوحيد إلى تلك القصيدة التي اسمها «الوطن»».

نيغاتيف رقم 5

في أنصار، صوّر لامع الحر بأحرفه حياة المعتقل:

«آلاف الأسرى في جزيرة اسمها «أنصار».. كيف يعيشون؟ كيف ينظّمون أمورهم؟ ماذا يفعلون؟ كيف يقضون أوقاتهم؟

«الأوامر تنفّذ بحذافيرها»، تذكّر دائمًا، أنت أسير، ممنوع أن تقرأ، أن تحفظ، أن تصلّي، أن تسهر، أن تشرب، أن تنام، أن تأكل، أن تضحك، أن تتسلّق كل الجدران، لتبتلع الأسوار، وتمشي خلف جنازة قبطان الموت».

«أنت أسير، وإسرائيل عدوة. ماذا ترجو إذًا؟».

في أنصار، يوميات القهر الطويلة المجسّدة في كل التفاصيل والحيثيات، حيث على الأسير النوم عند الساعة الخامسة والنصف مساء، وأثناء النوم عليه الالتزام بالممنوعات التالية:

- عدم الحركة وعدم محاولة رفع الرأس.
- عدم مغادرة الخيمة لأي سبب كان.
- عدم الذهاب إلى الحمام لقضاء الحاجة.
- عدم التحدث إلى الزملاء.
- عدم تذوق أي طعم للراحة، سوى راحة النوم الإلزامي.

«السهر لا يفيد، يضر بالصحة، وإسرائيل حريصة جدًا على صحتنا».

في أنصار، يخاطبك صوت، لا تعلم من أين يأتي، غير أنّك تدرك أنه يحاول أن يثبط عزيمتك: «لكنك في الأسر، لا تستطيع ممارسة الطقوس، لا تستطيع مقابلة الله، ولا تستطيع تأدية الفرائض، لا شيخ، لا جامع، ولا مصلى. فقط السوط هو الحاكم الوحيد، في هذه الحضارة المتمكّنة».

«أنصار، حيث العصا لمن عصى»، وفي أنصار، «الجوع عصا، القمع عصا، الأسلاك عصا، التذكار عصا، القراءة عصا، الفرح عصا، النوم عصا، العد الصباحي عصا، الزنزانات عصا، الكهرباء عصا، النوم فوق الحصى عصا، البرد عصا، الهاجرة عصا، والثورة على الأوضاع عصا»، غير أنَّ لسان حال الأسرى هو لسان حال كلّ حر: «في كلّ الأحوال هناك عصا»، لكنّك تردّ على ذلك الصوت: «سنثور، سنغيّر، سنطالب، سنقرع الجرس، سندق الباب، سنقتحم السور، سنعربش فوق ظلال القمر، وليكن العناق طويلًا أيتها العصا».

نيغاتيف رقم 6

تظاهرة نسائية، أرادت الأمهات والأخوات الاطمئنان على أبنائهنّ وإخوانهنّ وأزواجهنّ. في أنصار، صراخهن يتصاعد: «يا محمد، يا حسين، يا علي، يا عمر، هل تسمعني؟».

إحداهن شاهدت أسيرًا فوق خيمة، قالت له: «ابني الوحيد محمود.. هل تعرفه.. أخبره أن أمك هنا.. أريد التحدّث معه.. هل صحته جيدة»، وتصرخ بصوت أعلى: «محمووووود، أنا أمك، تعال...».

الكل سمع نداء، كلّنا محمود، أين أمهاتنا؟

صعّد العدو قمعه بغتة، هجم على النساء، أطلق النار إرهابًا، ألقى القنابل المسيلة للدموع، ومحمود لم يسمع صوت أمه. أخيرًا، لم يستطع محمود صمتًا. هبّ أنصار كلّه، صرخ بملء فيه: «الله أكبر، الله أكبر». هجم على البوابات، زعزع الأسلاك، لم يخف رصاصهم، وصراخ النّسوة يتصاعد.

أطلق الجنود الرّصاص، أصيب بعض الأسرى، انهمرت الدماء غزيرة، وعلا الصوت «الله أكبر». «رشقنا حجارة، أصابتهم، فكثّفوا نيرانهم. أصيب أحدنا في يمينه، فراشقهم في يسراه، ولم يسلّم. راشقهم في جبينه ولم يسلّم، راشقهم في صدره، ولم يسلّم، راشقهم في أسنانه، ولم يسلم. كان هذا الأسير «محمود» الذي لم ير أمه ولم يحدّثها، كما اشتهت واشتهى...».

يومها، شهد المعتقل «انتفاضة على طريق البعث، طريق الكرامة، وطريق المروءة العربية الشامخة»، وكانت انتفاضة «يزوج أبناؤها تماثيل الحرية زواجًا غريب الوجه والقلب واليد واللّسان».

ختام الشريط... عن التحدي الذي لا يتوقف

صُوَر أنصار لا تنتهي، وكتاب لامع الحر، المكوّن من 355 صفحة، يروي ويُصور الكثير الكثير... وهو يجسد كنه معتقل أنصار في قوله إن «المعاناة هي المعاناة، في أنصار، أو في بيروت، أو في أي مكان آخر، وأنصار ليس حلمًا، أنصار واقع عشناه، لنجسّده بقية عمرنا الآخر».

«أنصار... شريان الدم الأحمر، عصب الحب الذي أبى أن ينكسر... والرماد الذي تحول جمرًا، قبل هدوء العاصفة».

«أنصار، أراده الغزاة مقبرة لكل المناضلين، لكنَّه تحول - رغم أنفهم - إلى جامعة ثورية، خرّجت من أرضها الصلبة أشرس المناضلين، المساهمين في ولادة أول نقطة مضيئة في تاريخنا المظلم».

«أنصار قصة لم تكتمل»، في رأيه، غير أنه لن يكمل قصة معتقل أنصار، وغيره من المعتقلات والسجون، «سوى الذين يتحدّون بأجسادهم جبروت المحتل».

غنى مونّس: باحثة ومترجمة وأستاذة جامعية من لبنان، تعمل أيضًا في مجال الصّحافة الإلكترونية. تعدّ رسالة ماجستير في الإعلام والتواصل في الجامعة اليسوعيّة في بيروت.

للتواصل عبر الإيميل: ghina.mouaness@gmail.com

مقام الشيخ أحمد بن سعادة في جزيرة سترة في البحرين

كشكول

أديم الأرض
الشّيخ الإمام أحمد بن سعادة البحراني

الشيخ فاضل الزاكي

عُرِفت البحرين منذ العصور الإسلاميَّة الأولى كمركز إشعاع حضاريّ وعلميّ، فقد أنجبت العديد من العلماء الأفذاذ الَّذين كانت لهم أدوار مؤثرة في شتى المجالات، والأمثلة كثيرة على ذلك. والمتتبّع لتاريخ البحرين العلميّ، يمكنه أن يلحظ أمرين مهمّين؛ الأوَّل أنَّ البحرين، ورغم كونها جزيرة مقطوعة عن العالم، وبعدها عن الحواضر العلمية النشطة في العالم الإسلامي، فإنّ المعطيات المتوفّرة تؤكّد وجود حراك علميّ بارز فيها، أهّلها للعب دور الحاضرة العلميّة في المنطقة.

وبشكل عام، يمكن القول إنَّ هذا الدّور بقي مستمرًا ومتواصلًا دونما انقطاع، بالرغم من كثرة التقلّبات السياسيّة والأمنيّة الّتي مرت بها البحرين طوال تاريخها، والتي كان لها أثرها البارز في ضعف هذا الدور أو اشتداده من زمن إلى آخر، وقد بقي الأمر كذلك حتى عهد قريب.

والأمر الآخر أنَّ كمّية المعلومات المتوافرة حول النّشاط العلميّ في البحرين بشكل عام، تتفاوت من عصر إلى آخر، فيمكن أن توصف أحيانًا بأنها معلومات «قليلة» أو حتى «شحيحة جدًا» فيما يتعلّق ببعض القرون القديمة، وهذا الأمر يختلف بالنسبة إلى القرون المتأخرة، إذ إنَّ المعلومات متوافرة بشكل أفضل نسبيًا.

واللافت هنا، أنَّ أقدم المعطيات الموجودة لدينا، تشير إلى تمركز العلماء في القرون القديمة في جزيرة سترة وما جاورها، من مثل «جزيرة أكل» ، و«قرية الماحوز». ولعل هذه المنطقة كانت بمثابة عاصمة للبحرين آنذاك. بالتأكيد، فإنَّ هذا الأمر لا يلغي الدور العلمي للمناطق الأخرى، حيث إنَّ هذا الاستنتاج مجتزأ، لأنّه مبنيّ على المعلومات الشَّحيحة التي وصلتنا عن تلك القرون، ولا زلنا نفتقد الكثير من المعطيات في هذا المجال. وربما تتغيّر نظرتنا لو وصلتنا.

البحراني.. العالم الجليل

مما لا شكّ فيه أنّ النشاط العلميّ لجزيرة سترة لم يقتصر على الحقبة القديمة، فقد كان لهذه الجزيرة دورها العلمي الفاعل والمتواصل على مرّ القرون، ويمكن الإشارة إلى كلّ من الشيخ عبد الله بن عباس الستري (المتوفى سنة 1267هـ/ 1851م)، والشيخ أحمد بن صالح آل طعان (المتوفى سنة 1303هـ/ 1886م)، والشيخ علي بن عبد الله الستري (المتوفى سنة 1320هـ/ 1902م)، كأعلام بارزين من أبناء هذه الجزيرة في الفترات الأخيرة.

ولكن، وبحسب المعطيات المتوفّرة، يبقى الشيخ أحمد بن علي بن سعيد بن سعادة الستري البحراني أقدم من نعرفه من أعلام هذه الجزيرة، وهو شخصية علميّة بارزة. ولكن، مع الأسف الشديد - وكأكثر علماء البحرين السابقين - لم يلقَ هذا العالم الجليل الاهتمام اللائق من المؤسّسات الثقافيّة، بل نجد تجاهلًا مقصودًا له ولأمثاله من علماء البحرين الأفذاذ في الإعلام الرسمي لهذا البلد، الّذي يصرّ على التّجاهل التام للماضيّ الإسلاميّ له ولتاريخ علمائه، في حين يركّز اهتمامه على بعض المقابر أو المعابد الوثنيّة لعصور ما قبل الإسلام.

والشيخ أحمد بن سعادة البحراني هو الشيخ كمال الدين أبو جعفر أحمد بن علي بن سعيد بن سعادة البحراني. عُرِف بنسبته إلى البحرين، فيقال له «البحراني». ومن المعلوم أنَّ «البحرين» كانت تُطلق قديمًا، ويراد منها ما يشمل الحواضر الثلاث، الإحساء والقطيف وجزيرة أوال. ويظهر من جملة من المصادر أنّها اسم لعموم السّاحل الغربيّ للخليج، أي ما بين البصرة شمالًا إلى عمان جنوبًا، وفق ما ذكر الرحالة والمؤرخون[1]. وبناءً عليه، فإنّ لفظة «البحراني» في تلك الأعصار ليست نسبةً مختصَّة بجزيرة أوال، التي هي البحرين الحالية، بل هي نسبة إلى عموم الإقليم.

والظاهر أنَّ اختصاص جزيرة أوال باسم البحرين، إنما حصل تدريجًا في القرون اللاحقة، وقد برزت هذه النسبة مع بداية الاحتلال البرتغاليّ للبحرين سنة 927هـ/ 1521م، إذ يظهر من المصادر أنَّ اسم البحرين كان يُطلق حينها على جزيرة أوال تحديدًا دون بقيَّة المناطق.

ورغم عدم تصريح المصادر بمكان سكناه على وجه التحديد، فإن الذي يظهر من القرائن أنه كان يسكن في جزيرة سترة، حيث يوجد قبره وقبر تلميذه. ولعلّه كان يسكن في قرية «الخارجية»، لأنها أشهر قرى جزيرة سترة وأقدمها، فهي بمثابة العاصمة لتلك الجزيرة.

الفيلسوف الحكيم

عند الحديث عن مشايخ عالم ما، ينبغي التَّمييز بين نوعين منهم؛ النوع الأول هو المشايخ الّذين حضر عندهم، ودرس لديهم، واستقى من نمير علومهم، ويُعبر عنهم بـ«الأساتذة». والنوع الثاني هو المشايخ الَّذين يروي عنهم وأجازوه، ويُعبَّر عنهم بـ«مشايخ الإجازة». وكثيرًا ما يكون الشيخ الأستاذ هو شيخ إجازة أيضًا، ولكن لا يوجد تلازم تام في ذلك، ولهذا قد يفترقان خارجًا في موارد عديدة. ولعلَّ الغالب في تلك الأعصار - خلافًا لهذه الأعصار - أن الشيخ لا يعطي إجازة الرواية للشَّخص ما لم يحضر لديه في الدرس مدة مديدة.

ليست لدينا معطيات كثيرة تشير إلى عدد مشايخ ابن سعادة أو أسمائهم، ولكنَّ المستفاد من بعض الإجازات، كـ«الإجازة الكبيرة» التي كتبها العلامة الحلي لبني زهرة الحلبيين، أنَّ الشيخ أحمد بن سعادة يروي عن الشيخ نجيب الدين يحيى السوراوي، ولم نجد في المصادر الموجودة بين أيدينا أيّ تصريح بروايته عن غيره، وإن كنا نطمئن إلى وجود مشايخ آخرين له، كما تقضي العادة الجارية بعدم الاكتفاء بالتتلمذ على شيخ واحد، وخصوصًا أن الشيخ نجيب الدين السوراوي كان مقيمًا في مدينة الحلة العراقية، التي كانت

آنذاك تمثل الثقل العلمي للشيعة، وكانت بمثابة الحوزة الأم للحوزات الأخرى، ما يظهر أنّ الشيخ أحمد بن سعادة لا بدّ من أن يكون قد سافر إليها وأقام فيها مدة من الزمن. وخلال ذلك، لا بدّ له من أن يلتقي علماءها البارزين، وهم كثر آنذاك.

وإذا كان لنا أن نحتمل بعض الأسماء من مشايخ ابن سعادة، فنحن نستقرب روايته عن اثنين من علماء البحرين في وقته، هما الشيخ راشد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن محمّد البحراني (المتوفى سنة 605هـ/1208م)، والشيخ قوام الدين محمد بن محمد البحراني (كان حيًا سنة 588هـ/ 1192م)، لتقارب عصرهما مع عصره، واتحاد البلد، ولكن مع هذا، لا يمكننا الجزم بذلك.

وقد بخلت علينا المصادر فيما يتعلّق بمشايخ الشيخ ابن سعادة البحراني وأساتذته، كما بخلت علينا كذلك فيما يتعلّق بتلامذته، فلم نتعرّف إلا إلى شخص واحد من تلامذته، وهو تلميذه الشيخ علي بن سليمان الستري. كان من أعلام القرن السّابع الهجري، وكان عالمًا فقيهًا ذا مشرب فلسفيّ.

كما أنَّ أغلب المصادر لم تشر إلى شيء من مؤلفات الشيخ أحمد بن سعادة البحراني، سوى رسالة مختصرة في حقيقة العلم، وقد اشتهرت باسم «رسالة العلم»، وقد شرحها الخواجة نصير الدين الطوسي (المتوفى سنة 672هـ/ 1273م). ولديه رسالة في معنى القبض والبسط، لم نجد من أشار إليها سوى الشيخ محمد علي العصفوري (المتوفى سنة 1365هـ/ 1946م) في تاريخه.

تُجمع المصادر على وصف الشيخ البحراني بالحكيم والفيلسوف، وهو ما قد يستفاد من كتابه «رسالة العلم»، الذي يدلّ على فضل كبير وعلم غزير، مضافًا إلى أن الشيخ جلال الدين الرومي

تُجمع المصادر على وصف الشيخ البحراني بالحكيم والفيلسوف، وهو ما قد يستفاد من كتابه «رسالة العلم»، الذي يدلّ على فضل كبير وعلم غزير لديه.

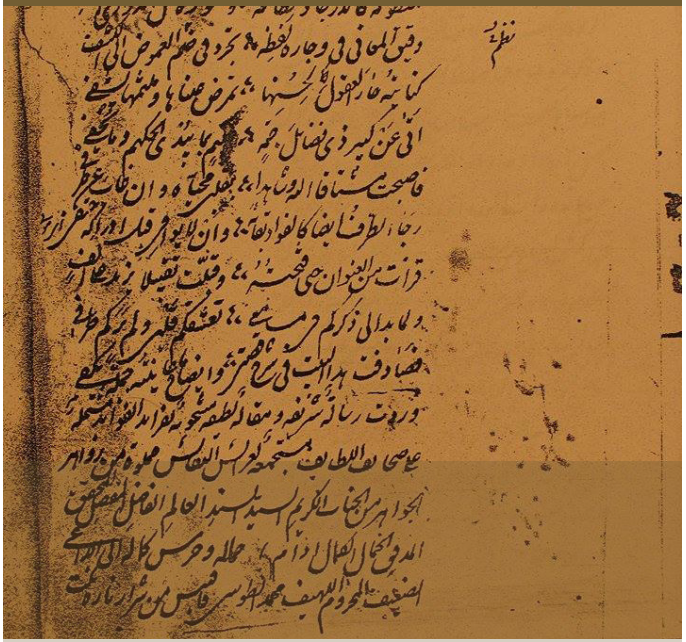

الصفحة الأولى من إحدى مخطوطات
«رسالة العلم» للشيخ ابن سعادة وشرحها
للخواجة الطوسي

(المتوفى سنة 672هـ/ 1273م) أرسل إلى ابن سعادة يسأله عن القبض والبسط، فكتب في جوابه كتابًا، وهو ما يؤكّد نبوغه وفضله وشهرته في هذا الميدان، بحيث صار مقصدًا في تحقيق هذه المسائل التي تحتاج إلى النقض والإبرام، ولكنَّ هذا الأمر لا يعني بالضرورة أنه اختصّ بالعلوم العقلية، ولم يكن بارزًا أيضًا في العلوم الأخرى، كالفقه والحديث وغيرها من العلوم النقلية، فهذه الأوصاف كثيرًا ما تُلصق بالعالم نتيجة شهرة بعض مصنفاته وضمور البعض الآخر منها وخفائها، أو لبعض القرائن التي يلتفت إليها البعض ويُغفل القرائن الأخرى.

لم تُشر المصادر القديمة إلى تاريخ وفاة ابن سعادة، ويمكننا نخلص إلى أنّ المترجم توفي في حدود منتصف القرن السابع الهجري (أي حدود سنة 650هـ/ 1252م) أو قبل ذلك بقليل (حوالى سنة 649هـ/ 1251م). ولا شكّ في أنه مدفون في جزيرة سترة، كما صرَّح بذلك كثير ممن ترجم لعلماء البحرين.

وهو، كما ذكر الشيخ المبارك، مدفون مع تلميذه الشيخ علي بن سليمان الستري، ومعهما قبر الشيخ حسين بن علي بن سليمان الستري، وقبورهم معروفة ومشهورة في مقبرة السلطان في جزيرة سترة. ومما يؤسف له أن عناية الناس بزيارتهم قليلة لا تتناسب ومقامهم الشامخ ومنزلتهم العلمية.

الوضع السياسيّ في عصره

منذ أواخر القرن الثالث وحتى أواسط القرن الخامس، كانت البحرين تحت سيطرة القرامطة الذين عاثوا فسادًا في الأرض، وأذاقوا أهل البحرين أنواع البلايا، إلى أن ثاروا عليهم، واقتلعوهم، وأزالوا ملكهم، وأنهوا بذلك حقبة سيئة من تاريخ المنطقة.

ثم بعد ذلك، ومنذ العام 467هـ/ 1074م، وعلى مدى ما يقارب قرنين من الزمن، كان إقليم البحرين بحواضره الثلاث (الإحساء والقطيف وأوال)، خاضعًا لسلطة الحكام العيونيين الذين يرجعون في نسبهم إلى قبيلة عبدالقيس العدنانية.

وكحال أهل البحرين آنذاك، عُرف العيونيون بولائهم إلى أهل البيت، ولا زالت العملات المعدنية خلال تلك الحقبة شاهدة على تشيعهم، حيث زُينت تلك العملات بعبارات «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله»[2]، ويؤكّد ذلك ما ورد في عبارات الرحالة والجغرافيين في تلك الأعصار، حيث أكّدوا تشيّع أهل البحرين، فمن ذلك ما ذكره ياقوت الحموي متحدثًا عن عمان، كما يؤيده ما ورد في شعر علي ابن المقرب العيوني (المتوفى سنة 629هـ/ 1232م)، الذي ينتمي إلى هذه الأسرة العيونية الحاكمة، من أبيات في أهل البيت.

فبعد سقوط دولة القرامطة التي حاربت الدين بضراوة وفتكت بالمتدينين، بدأ أهل البحرين يتنفسون الصعداء. وفي ظلّ قيام الدولة العيونية واستقرارها، بدأ البعض بالهجرة إلى الحواضر العلمية في العراق من أجل طلب العلم ورواية الحديث، فبدأ العلم يزدهر في حواضر البحرين، وبدأ العلماء من أهالي المنطقة في تصنيف الكتب دونما خوف أو تهديد. ولعلَّ أول كتاب وصلنا هو كتاب «مختصر أحوال المعصومين» [3] للشيخ راشد بن إبراهيم بن إسحاق البحراني (المتوفى سنة 605هـ/ 1208م)، الذي عاصر الشيخ أحمد بن سعادة شطرًا من حياته.

ومما قيل في حقه وحق كتابه «رسالة العلم»، ما أورده الخواجة نصير الدين الطوسي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أتاني كتاب في البلاغة منته — إلى غاية ليست تقارب بالوصف

فمنظومه كالدّر جاد نظامه — ومنثوره مثل الدّراري في اللطف

دقيق المعاني في جزالة لفظه تحيّر في ضم الغموض إلى الكشف

كغانية حار العقول بحسنها تُمرِّض عيناها وملثمها يشفي

أتى عن كبير ذي فضائل جمّة عليم بما يبدي الحكيم وما يخفي

فأصبحتُ مشتاقاً إليه مشاهداً بقلبي محيّاه وإن غاب عن طرفي

رجا الطرفُ أيضاً كالفؤاد لقاءه وأن لا يوافي قبل إدراكه حتفي

قرأتُ من العنوانِ حين فتحته وقبلت تقبيلاً يزيد على الألف

ولما بدا لي ذكركم في مسامعي تعشقكم قلبي ولم يركم طرفي

فصادفت هذا البيت في شرح قصتي وإيضاح ما عانيته جملة يكفي

مقالة مختصرة من ورقة بحثية قُدِّمت في الندوة التعريفة بالشيخ أحمد بن سعادة في العام 2015.

المراجع:

1. انظر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1: 379، ومعجم البلدان 1: 347.
2. انظر كتاب "نقود الدولة العيونية في بلاد البحرين"، لمؤلفه نايف بن عبد الله الشرعان.
3. الذريعة إلى تصانيف الشيعة 20: 173.

الشيخ فاضل الزاكي: عالم دين بحريني ومدرّس حوزوي ومدير حوزة الإمام زين العابدين (ع) في البحرين. درس المقدمات والسطوح العليا، ثم حضر البحث الخارج لعددٍ من الفقهاء والمراجع. له العديد من المؤلفات والأبحاث.

للتواصل عبر الإيميل: Fadhelfadhel@hotmail.com

مخطوطات في المآتم النسائيَّة في البحرين

رملة عبد الحميد

تفاعلت المرأة في البحرين مع الموسم العاشورائي، وأصبحت جزءًا من منظومته، وساهمت بشكل فعّال في إحياء شعائره. لم يُؤرَّخ لبدايات المآتم النسائية في البحرين وتطوّرها، ولكن على ما يبدو من خلال لقائي من التقوا المؤسِّسات الأوائل لها أو سمعوا عنها، أنَّ تأسيس المآتم النسائية - التي عرفت آنذاك بالحسينيَّة - في البحرين، يرجع إلى مطلع القرن الماضي، حيث كانت النساء تستمع مسبقًا إلى مجالس الرجال عبر غرف مجاورة.

بدأت المآتم النسائية في البحرين صغيرة، ففي كلّ حيّ أو لدى كلّ عائلة معروفة يوجد مأتم، ولم تدرج الخطابة فيه لعقد من الزمن، كما أن المجلس الحسيني كان يستغرق وقتًا من الزمن يتراوح بين 3 و4 ساعات، نظرًا إلى تناوب ما يفوق عشر قارئات على القراءة، ضمن تدرّج معهود فيها.

يختلف المأتم النسائي عن مأتم الرجال في مسألة التنظيم والأسلوب، وإن كان ما يجمعها هو القراءة الحسينية. قامت المآتم النسائية على الشراكة بين المنظَّمات أو أصحاب المأتم، والقارئة الكبيرة ومن معها من قارئات، وغالبيتهن طالباتها «الوليدات»، وهي تعرف بالمَعلمَة، إذ إنَّ الأهالي يلحقون بناتهم بإحدى دور تعليم القرآن من أجل أن تكون ابنتهم قارئة في المأتم، فتخضع لبرنامج تعليمي تدريبيّ يستمرّ من سنتين إلى ثلاث سنوات، بحسب قدرتها وإمكاناتها، فتتعلَّم قراءة القرآن الكريم بدايةً بإعراب جزء عمّ، ثمّ تعلم القراءة السردية لبقية أجزاء القرآن الكريم، لتنتقل بعدها إلى تعلّم القراءة في كتاب «المنتخب» لفخر الدين الطريحي المتوفى في العام 1085هـ/ 1674م، وهو كتاب يتضمَّن خطبًا ومراثي في الإمام الحسين (ع).

بعد تخرّجها من «المَعَلم»، تلتحق بالمأتم الَّذي تديره معلّمتها، وتبدأ كقارئة مبتدئة بقراءة ما يعرف بالحديث، وهو قراءة لكتاب الطريحي، ثم تتدرَّج بقراءة القصيدة، ولها لحن خاصّ، ومن ثم اللطمية (الردادية)، حتى تتمكَّن من إجادة قراءة النعي، وهي الرواية.

الرواية هي العمود الفقري في القراءة الحسينية النسائية في المأتم. عادةً ما تقرأها كبار القارئات بلحن معيَّن. هذه الروايات المختلفة لها مناسبات محددة تُقرأ فيها. في المآتم النسائية في البحرين، وبخاصَّة القديمة منها، التي تجاوز عمرها الزمني أكثر من قرن، يوجد روايات على شكل مخطوطات عمرها أكثر من سبعين سنة، وهي لا تزال موجودة في أدراج الكتب في المآتم، ومكتوبة بخط اليد باللون الأسود على ورق كرتون غير مسطّر، ومغلفة بغلاف سميك ليس عليه عنوان أو اسم للكاتب.

في قريتنا الدير، شمال محافظة المحرق في البحرين، يوجد أكثر من 24 مأتمًا نسائيًا، بعضه حديث والآخر قديم. من أقدم هذه المآتم في القرية، مأتم الحاجية، مأتم سلوم، مأتم الشريفة... وقد اخترت من مكتبة مأتم الحاجية - يعرف حاليًا بمأتم الحاج عباس - ثلاثة كتب مخطوطة. أوَّل كتاب كان بلا عنوان، ويبدو أن كاتبه نقله من عدة كتب، وهو يحتوي ثلاث روايات؛ الرواية الأولى هي قصَّة مسيرة الإمام الحسين منذ خروجه من المدينه وحتى استشهاده. هذه الرواية تبدأ بقصيدة من 70 صفحة، لم يشر الكاتب إلى اسم الشاعر الذي نظمها، ولكن تبدو أنها تعود إلى الشيخ شهاب الدين الحائري الحلبي المعروف بالشواء الكوفي ومطلعها:

أفكر والصبا الحزين يفكر وأسهر ليلي والمصائب تسهر

تنتهي الرواية بقصيدة أيضًا لم يذكر شاعرها. وبعد البحث، اتَّضح أنها للشاعر البحريني الشيخ مغامس بن داغر الحلي، المتوفى في القرن 850 هـ. وجاء في مطلعها:

لبني الهادي مناحي في غدوي ورواحي

صاح ما قلبي بصاحي ما لحزني من براح واحسيناه

ثم تأتي صفحة بيضاء، لتبدأ بعدها الرواية الثانية، وهي تحمل عنوان «نوحية العباس بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)»، وتروي قصَّة استشهاد العباس، وتنتهي بقصيدة مطلعها:

للفتى العباس نوحوا وبسر الحزن بوحوا واشهيداه

الرواية الثالثة في هذا المخطوط، هي قصَّة مريم ابنة عمران. الغريب في الأمر أنَّ المآتم النسائية في البحرين تحيي ذكرى وفاة مريم ابنة عمران في السادس والعشرين من شهر صفر، وتعتمد النساء في قراءة الذكرى على كتاب قديم جاء في مقدمته: «فيقول الفقير الذنب الأسير القاني محمد بن أحمد بن إبراهيم المقابي البحراني، إنِّي أسرد في هذا الكتاب الجليل بعض فضائل صاحب الإنجيل وما جرى له»، وهي القصة التي رواها المؤلّف مطابقة لما جاء في القرآن الكريم، إلا أنه يتفرَّد برواية خاصَّة بمولد المسيح، إذ يقول: «فلمّا أكملت مريم ستة أشهر، وقرب وقت وضعها، اشتدَّ بها الطلق، وأدركها المخاض... فأقبلت تمشي من دمشق، فناداها

جبرئيل، وقال: يا مريم، عليك بموضع النخلة، فهي خير بقاع وأشرفها... فلمّا أصبح الصباح، وكان ذلك يوم سوق، استقبلها الحاكة، وكانت الحاكة أنبل صناعة في ذلك الزمان... فقالت لهم مريم: أين النخلة اليابسة التي في أرض كربلاء؟ فاستهزأوا بها وزجروها... ثم استقبلها قوم من التجار، فدلّوها على النخلة اليابسة عند ضريح الحسين... فوضعت في موضع قبر الحسين»، معتمدًا على ما أشارت به الآية الكريمة: «فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًا»، لكنَّ التفاسير الشيعية، كتفسير «الميزان» للعلامة محمد حسين الطبطبائي، ومجمع «البيان» للعلامة الفضل بن حسين الطبرسي، اتفقت على أنَّ المكان القصيّ هو المكان البعيد الّذي لم يحدّد موقعه. أمّا المخاض، فكان عند جذع نخلة، والتعبير بجذع النخلة دون النخلة، لكونها يابسة غير خضراء.

عندما سألت النسوة: لماذا تحيين ذكرى وفاة السيدة مريم؟ أشارت إحداهن إلى أنَّ السبب في ذلك هو قداستها وعبادتها وطاهرتها، وقالت أخرى: لأنها تشبه السيدة فاطمة الزهراء في طهارتها وقدسيَّتها وما جرى على ابنيهما من ظلم من الأمة، وأجابت ثالثة: ربما للأنَّ موضع ولادة المسيح هو موضع استشهاد الإمام الحسين (ع). لكن جميعهنّ أشرن إلى أنها عادة موروثة من الأمهات، تستوجب النذورات الخاصّة بما تأكله مريم من فواكه وعشب الأرض، لتعاد الذكرى في كلِّ عام، ومعها تبقى مريم العذراء في النفوس شاهدة على أنها للجميع.

الكتاب الثاني جاء على شكل مستطيل، ويُعرف لدى القارئات بالمجموع، وسمي بذلك لأنه، كما يبدو، جمع أكثر من عشر روايات، تسرد الأولى قصّة السيدة زينب في الأسر، وتنقل الثانية عن رجل يدعى أحمد بن الحجاج: «كنت نائمًا ليلة الثاني عشر من عاشوراء، وكان قلبي بنار الحزن مسجورًا»، ثم ينقل عنه أنه قال: «رأيت واعية...». وفي هذه الرواية، يحكي رؤيته في منامه بأنه التقى طيرًا ينوح على الإمام الحسين (عليه السلام)، ودار حديث بينه وبين هذا الطائر الذي شهد فاجعة كربلاء. أما الثالثة، فهي حول رواية الأكفان الأربعة، وهي مأخوذة وفق ما جاء في الكتاب عن سلمان الفارسي، كما جاء فيها رواية أبناء مسلم بن عقيل وغيرها.

الكتاب الثالث كان معظمه قصائد رثائية مع بعض الروايات، أبرزها «في بعض الأخبار والعلوم، أنه لما رجع زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام)، أتى إليه أبو حمزة الثمالي ليعزيه بمصاب أبيه الحسين (عليه السلام)...». هذه الرواية تشير إلى الحوار الذي دار بينهما، مع أشعار تتخلّل إجابات الإمام (عليه السلام) حول ما أصابه في موقعة كربلاء.

القراءة الحسينية في المآتم في البحرين تستغرق وقتًا مطولًا، وتستمرّ طوال العام صباحًا ومساء. لذلك، فإنّها بحاجة إلى روايات تقرأ من خلال عدة مؤلفات تصيغ هذه المرويات والقصص، وتتخللها بعض القصائد، تجمع في كتاب يخطّها أحد الكتبة الَّذين امتهنوا هذه المهنة، في وقت يقلّ عدد من يجيد الكتابة، إضافةً إلى ندرة الكتاب المطبوعة، وبخاصَّة في بدايات القرن الماضي. لذا احتفظت أدراج المآتم النسائية القديمة بالكثير منها، والتي تحتاج إلى مراجعة وتحقيق، لكنَّها تزخر بتاريخ قديم وثري يرجع إلى أصالة المآتم في البحرين، وأصالة من يحيي الشّعائر الحسينيَّة.

رملة عبد الحميد: باحثة بحرينية متخصّصة في التاريخ الحديث. أعدّت رسالة ماجستير حول البحرين بين العام 1939 والعام 1919 من خلال الوثائق البريطانيّة. تعدّ حاليًا أطروحة دكتوراه حول التنظيمات السياسية والاجتماعية في البحرين 1971-2001.

للتواصل عبر الإيميل: history_r_h@yahoo.com

بدأت المآتم النسائية في البحرين صغيرة، ففي كلّ حيّ أو لدى كلّ عائلة معروفة يوجد مأتم، ولم تدرج الخطابة فيه لعقد من الزمن، كما أن المجلس الحسيني كان يستغرق وقتًا من الزمن يتراوح بين 3 و4 ساعات.

مخطوطات من بعض المآتم الحسينية

جانب من معرض «قول يا طير» في مدينة رام الله في فلسطين

متابعات

«قول يا طير».. معرض للذاكرة الفلسطينيَّة في رام الله

افتُتح في متحف محمود درويش في مدينة رام الله في فلسطين معرض فنيّ حول الذاكرة الفلسطينية، بعنوان «قول يا طير»، بإشراف مؤسَّسة «الرواة للدراسات والأبحاث»، بالشراكة مع دائرة الثقافة والإعلام في منظمة التحرير الفلسطينية، ومؤسسة «البيت الدنماركي»، ومؤسَّسة «الناشر».

وتخلَّل المعرض كلمة لرئيسة مؤسَّسة «الرواة» فيحاء عبد الهادي، أوضحت فيها أنَّ الشهادات الموثقة لدى المؤسَّسة وصلت إلى 115 شهادة، جمعها باحثون فلسطينيون متخصّصون في الوطن والمهجر. ودعت إلى تقديم المزيد من المعلومات للمؤسَّسة التي تعمل على توثيق الرواية الفلسطينية وتقديمها بكلّ أنواع الفنون والوسائط المرئية والسمعية والمكتوبة والتفاعلية.

وأطلقت مؤسَّسة «الرواة» على هامش المعرض كتابين هما «ذاكرة حيّة» و«مرآة الذاكرة»، باللغتين العربية والإنكليزية، أعدَّتهما وحرَّرتهما فيحاء عبد الهادي.

ويروي معرض «قول يا طير» حكايات المهجّرين الفلسطينيين في العام 1948 بشكل فني، وتمّ استلهام عنوانه من عبارة شعبية فلسطينية معروفة تشير إلى تداول الحكاية بين الأجيال المختلفة.

يتضمّن المعرض شهادات أشخاص عاشوا الترحيل القسري، جمعتها مؤسَّسة «الرواة»، وهي تقدم ثروة من المعلومات عن حياة الناس حتى العام 1948، إضافةً إلى مواد عينية تم جمعها منهم، مثل مفاتيح البيوت وفساتين الأعراس وحلي وأساور وصور شخصية، فضلًا عن العديد من المقتنيات التي كانت بحوزتهم.

الجزائر تشتري أرشيفًا مهمًا بمزاد علنيّ في فرنسا

اقتنت الجزائر 600 وثيقة تاريخية تعود إلى الحقبة العثمانية، كانت معروضة في مزاد علني في دار «مارمابات ملافوس» في مدينة تولوز الفرنسية، بقصد إتاحتها للباحثين في التاريخ.

وأفاد بيان لوزارة الثقافة الجزائريّة بأنَّ هذه الوثائق التي تم اقتناؤها، تعود إلى «فترة التواجد العثماني في الجزائر، وإلى السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي»، وتتمثَّل في مجموعة «مخطوطات وصور وخرائط وكتب نادرة».

وقد مثَّلت وزارة الشؤون الخارجية ووزارة الثقافة الجزائر في المزاد الذي شهد «منافسة كبيرة بين الكثير من الهيئات والمؤسسات الفرنسية»، إضافة إلى جامعي الوثائق القديمة الأجانب، بحسب البيان.

واعتبر بيان وزارة الثقافة أنَّ اقتناء الوثائق «خطوة تكتسب بعدًا سياديًا في إطار الجهود التي تبذلها أعلى السلطات في الدولة لاسترجاع الأرشيف، وتمكين الباحثين الجزائريين من إجراء الدراسات التاريخية على أساس مستندات موثوقة، لتثمين الذاكرة الجماعية».

ويعدّ ملفّ الأرشيف الجزائري لدى فرنسا أحد الملفات التي لا تزال محلّ شدّ وجذب بين البلدين منذ عقود. وطالبت الجزائر، بعد الاستقلال، فرنسا بتسليم جميع الأرشيفات المرحّلة، لكنَّ مطالبها بقيت معلّقة إلى بداية الثمانينيات، حيث بدأت المفاوضات بين الجزائر وباريس، من خلال تشكيل لجان مشتركة.

واعتمد الطرف الجزائري على النصوص القانونية الصادرة عن الأمم المتحدة ومنظَّمة الأونيسكو والندوة الدوليَّة للأرشيفات، التي تنصّ «على حقّ الدّول المستقلّة في ممارسة سيادتها بأثر رجعيّ على الأرشيفات التي كتبت وحفظت على أراضيها، وعلى ضرورة أن تبقى الأرشيفات في الأرض التي كتبت وحفظت فيها لأول مرة».

المركز الوطنيّ للوثائق في السّعوديّة يحتفي باليوم العالميّ للأرشيف

احتفى المركز الوطني للمحفوظات في السعودية باليوم العالمي للأرشيف، وذلك بتنظيم ورشة عمل بعنوان «الوثائق التاريخية والمواطنة» في مدينة الرياض، بمشاركة عدد من الأكاديميين والمتخصّصين في مجال الوثائق والأرشفة.

وركَّزت ورشة العمل على عدة جوانب، منها تجارب المواطنين في جمع المحفوظات التاريخية، ومجالات التعاون بين المواطنين والأرشيفات الوطنية، ومساهمة الوثائق الشخصية للمواطنين في تعزيز المواطنة.

ومن بين الأنشطة الأخرى، أطلق المركز حملة توعوية حول اليوم العالمي للأرشيف عبر صفحته الرسمية في وسائل التواصل الاجتماعي.

وكان المجلس الدّوليّ للأرشيف قد احتفى باليوم العالمي للأرشيف لهذا العام تحت عنوان «الأرشيف، المواطنة والتعدديَّة الثقافيَّة».

رقمنة أكثر من 25 مليون صفحة من أرشيف مجلس النوّاب المغربيّ

تبنّى مجلس النواب في المغرب مشروع «البرلمان الإلكتروني» الَّذي يهدف إلى تعميم استعمال تكنولوجيا الإعلام والتواصل في جميع أشغال المجلس، من أجل الحدّ من الاستهلاك المفرط للورق، والرفع من الشفافية، وتحقيق انفتاح أكبر على المجتمع، وتعزيز قدرات المجلس في ممارسة صلاحياته، وتثمين أرشيف المجلس، وتحقيق التراكم في الممارسة البرلمانية.

وبحسب بلاغ المجلس، تم تعزيز البنية التحتية المعلوماتية لمجلس النواب، وتحديث الشبكة المعلوماتية، وإنجاز مركز للبيانات

Datacenter بحسب المعايير الدولية المتعارفة في هذا المجال، وتوفير التجهيزات المعلوماتية الضرورية، واتخاذ التدابير والإجراءات الملائمة من أجل تعزيز أمن المعلومات بالمؤسَّسة التشريعية.

ومن أجل تثمين أرشيف مجلس النواب وحفظ الذاكرة البرلمانية التي تتجاوز 50 سنة، تمّ إنجاز مقر جديد لحفظ الأرشيف بحسب المعايير الدولية، وإعداد ميثاق الأرشيف، ومنهاج ترتيب الوثائق، والجدول الزمني لحفظ الوثائق، ومساطر العمل الأرشيفي، والشروع في تنظيم أرشيف البرلمان ومعالجته، بحسب الوسائل والآليات السابقة.

كما تمَّت رقمنة أرشيف الجريدة الرسمية منذ فترة المجلس الوطني الاستشاري 1956-1959، ورقمنة أرشيف الجريدة الرسمية للبرلمان منذ الولاية التشريعية الأولى 1963-1965 إلى الولاية التشريعية الحالية، ورقمنة ما يزيد على 2,5 مليون صفحة من أرشيف مجلس النواب، تشمل الأسئلة الشفاهية والكتابية، وتقارير اللجان، ومشاريع القوانين ومقترحاتها، وإصدارات المجلس، ومحاضر اجتماعات المكتب، وأرشيف الفرق النيابية، وأرشيف المكتبة، وباقي المصالح الإدارية.

وفي السياق نفسه، تمَّ إنجاز نظام للتدبير الإلكتروني للوثائق يسمح بتخزين الأرشيف المرقمن والتبادل الآمن للوثائق بين مختلف المصالح واللجان والفرق النيابية، وتمت إتاحة هذه الوثائق في الشبكة الداخلية (الأنترانت) مع إمكانيات متطورة في البحث.

«حريَّة الفكر والتَّعبير» تنشر ترجمة ورقة «إمكانيَّة الوصول للأرشيف»

في إطار احتفائها باليوم العالميّ للأرشيف، نشرت مؤسَّسة حرية الفكر والتعبير الترجمة العربية لورقة «إمكانية الوصول للأرشيف وحماية البيانات»، والتي تمثل الفصل الثاني من دراسة أكثر شموليةً أصدرتها لجنة شؤون الأرشيف القانونية في المجلس الدولي للأرشيف في يوليو/ تموز 2006.

تنقسم الورقة إلى قسمين أساسيين؛ الأوَّل هو تحليل المشكلات العامّة المتعلّقة بإمكانيّة الوصول إلى المعلومات المتضمّنة في الأرشيف والقيود على تلك الإمكانية، فيما يتناول الجزء الثاني حماية الحقّ في الخصوصيَّة كعائق جوهري أمام إمكانية الوصول، وذلك استكمالًا لما نشرته المؤسَّسة العام الماضي من ترجمة الفصل الأول بعنوان «مبادئ تشريعات الأرشيف والسّجلات»، والَّتي ناقشت العديد من القضايا الجدليَّة التي تواجه المُشرّع في التأسيس لتشريعات تنظيم الأرشيف والوثائق الوطنيَّة وحمايتها وإتاحتها.

يأتي ذلك في إطار اهتمام مؤسَّسة حريَّة الفكر والتعبير بتوفير محتوًى معرفي باللغة العربية، علمي ومتخصّص، حول قضايا إدارة الأرشيف وإتاحتها، للمساهمة في فتح مجال للحوار حول مشكلات الإتاحة، والسّياسات والتشريعات الحاكمة للمؤسَّسات المعنية بإتاحة الأرشيف الوطني في مصر، وعلى رأسها دار الوثائق القومية، وكيفية تطوير نظم الأرشيف وتفعيلها، بما يضمن حرية الوصول للأرشيف وإتاحته بالشكل الملائم، بوصفه إحدى أهمّ الآليات التي تضمن تكوين الذاكرة الفرديَّة والجماعيَّة وحفظها، حريات البحث العلمي والأكاديمي، حرية العمل الصحافي والإعلامي، وحرية إنتاج المجتمع للمعارف البديلة عن أهم قضايا التاريخ

والسّياسة والاجتماع التي ما زالت أسيرة رؤية من يحكم ويقيّد حرية الوصول إلى الوثائق والأرشيفات القوميَّة.

مركز إحياء التراث في العراق يطلق موقع مجلّة «الخِزانة» التراثيَّة

أعلن مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدّسة في العراق عن إطلاق الموقع الإلكتروني الخاصّ بمجلّته التراثية «الخزانة»، تزامنًا مع اقتراب صدور العدد الأول منها، وهي مجلة تُعنى بالتراث المخطوط والوثائق، انطلاقًا من مساعيها المتمثلة بالبحث عن المخطوطات وجمعها وفهرستها وتحقيقها وحفظها.

من هنا، شرع مركز إحياء التراث مؤخرًا بإصدار مجلة علميَّة تُعنى بالتراث المخطوط والوثائق، فكانت «الخِزانة» مشروعًا فكريًا يهدف إلى إحياء العلوم والمعارف والفنون، وتشجيع الباحثين والمهتمين بالتراث على التواصل مع موروثهم الثقافي، والإسهام في إعادة بعثه وترميمه وتحقيقه وطبعه ونشره والإفادة منه.

مركز جمعة الماجد في الشّارقة يحتفي باليوم العالميّ للأرشيف

نظَّم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في الشارقة فعاليَّة ثقافيَّة توعويَّة لمناسبة اليوم العالمي للأرشيف، بالتعاون مع دائرة الأشغال العامَّة في المدينة.

بدأت الفعاليَّة بورشة عمل بعنوان «أهمية ودور الأرشيف في المؤسَّسة»، قدَّمها مسؤول الأرشفة الإلكترونية في المركز، خبير الأرشفة، وعضو المجلس الدولي للأرشيف، أحمد عثمان، وتحدَّث فيها عن الأرشفة وأهميتها على المستوى الفردي والجماعي والمؤسّسي، وكيفيَّة محافظة المؤسَّسات على الوثائق المهمّة بطريقة علميَّة مبنيَّة على الأسس والمعايير الدولية، بحيث يمكن استرجاعها بيسر وسهولة، من دون أن تتكدَّس الوثائق وتتكرّر النسخ من غير حاجة، كما ناقش المشاكل والحلول التي تواجه كلّ فرد في مجال الأرشفة الورقية والإلكترونية.

ونظَّم المركز ورشة أخرى حول كيفيَّة صناعة الورق، قدَّمها محمد الدالي، رئيس شعبة ترميم المطبوعات في المركز، وشرح فيها بطريقة عملية كيفية صناعة الورق على الطريقة القديمة. بدأ الدالي بعرض المواد الخام الطبيعية المستخدمة، مثل الخيش والقنب والقطن وسعف النخيل وغيرها، وكيفيَّة معالجة هذه المواد لصنع عجينة الورق، ثم تحويلها إلى ورقة كاملة. بعدها، قام المشاركون في الورشة بصنع الأوراق بأنفسهم.

وتخلّل الفعاليةَ معرض ضمّ أوائل الدوريات القديمة الصّادرة في دولة الإمارات العربية المتحدة، ونماذج من المخطوطات التي يقتنيها المركز.

قراءة في مشروع «الدليل المرجعي لتدبير الأرشيف» في المغرب

في إطار الجهود الَّتي تبذلها مؤسَّسة أرشيف المغرب للنهوض بتنظيم الأرشيف العمومي وتدبيره، ولمناسبة احتفالها باليوم العالمي للأرشيف، واستعدادًا لتعميم الدليل المرجعي لتدبير الأرشيف العمومي على الإدارات العمومية، نظَّمت المؤسَّسة يومًا دراسيًا حول موضوع «قراءة في مشروع الدليل المرجعي لتدبير الأرشيف العمومي».

وقد شكَّل هذا اليوم مناسبة لفتح النقاش بين المهنيين حول ورش الأرشيف بصفة عامة، وإجراءات تدبيره بصفة خاصَّة، وكان فرصة لتبادل الآراء فيما بينهم حول الدليل المرجعيّ الذي أعدَّته المؤسَّسة، وذلك بغية استجلاء مدى تطابق ما هو معمول به في الإدارات والهيئات العمومية مع ما جاء في الدليل، وبالتالي تقييم مدى إمكانية تطبيقه على أرض الواقع، وما يتطلبه ذلك من جهود في سبيل ملاءمة الممارسات الأرشيفية له والمعوقات الّتي قد تعترض مسار تفعيله.

جانب من فعالية اليوم الأرشيفي في المغرب